الباب السابع

«عمرٌ في العاصفة»
مذكرات أحمد عباس صالح

obeikan.com

obeikan.com

(١)

أحمد عباس صالح اسم من الأسماء الكبيرة فى التاريخ الثقافى واليسارى فى عصر الثورة، قدر له أن يقدم كثيرا من أفكار اليسار إلى جمهوره من خلال رئاسته لتحرير مجلة «الكاتب»، وقد لا يعرف الناس أن حظه شاء أن تصطدم به الثورة منذ بداية عهدها بسبب ما ظن أن سيرضى الثورة، أو يحقق هدفها، لكن جرعة الثورة فى العمل الفنى الذى قدمه كانت كافية لتخيف قادة الثورة أنفسهم، بمن فى ذلك عبد الناصر، وصلاح سالم وغيرهما، وهكذا كان هذا العمل الإذاعى «مصاصو الدماء» بمثابة العقبة التى بذرت بذور الشك فى نفوس رجال الحكم تجاه صاحب هذه المذكرات على نحو ما سنستعرضه مما رواه بالتفصيل فى الفصل الثانى عشر من مذكراته، بل لقد استمر هذا الخوف، ودفع أحمد عباس صالح نفسه ثمنه حين فقد كثيرا من مواقعه الوظيفية، أو المدرة للرزق.

والواقع أننا نكاد نحس أن هذه الواقعة الفظيعة (التى عقد لها مجلس قيادة الثورة ما يشبه جلسة محاكمة لهذا المؤلف) ظلت تنذر أحمد عباس صالح وتحذره من الخطوات «المتقدمة» فى التعامل مع السلطة فى أوطاننا العربية، وهكذا فإنه ترك مصر حين وجد أن الرزق قد ضاق فيها، وأن الأمل يمكن أن يبزغ خارجها، وهكذا تعامل بإرادته أيضا مع الأجنحة المختلفة فى أنظمة العراق وليبيا قبل أن يصيبه الأذى.. وهكذا قدر له أن ينجو من السجن والاعتقال، لكنه فى المقابل عاش الغربة والاغتراب، وإن كان حظه فيهما خيرا من حظ غيره.

(٢)

وتدلنا مذكرات أحمد عباس صالح عن فترة غربته على مدى ما يمكن لشرقى مثله

أن يحسه فى مرحلة انتقال إلى المجتمع الغربى بكل ما فيه من اختلاف، وبكل ما فيه من مزايا ظل يفتقدها ويتمناها فى المجتمع الذى نشأ فيه، والواقع أن مذكرات أحمد عباس صالح تجيد تصوير شعور الشرقى الناضج وهو يتأمل حياته فى ظل نظم ليبرالية تحفظ حقوق الإنسان، وبخاصة حقه فى العلاج، والعمل، وتحافظ على هذه الحقوق من دون ضجة كبيرة، وتمنح المهاجر الجديد من طبقة أحمد عباس صالح فرصة الأمن الذى افتقده، وقد افتقده بقسوة، وعاش القسوة بسبب هذا الافتقاد، وليس أدل على هذا من الفصل السابع والثلاثين «إعدام صديق» الذى وصف فيه تفصيلات نفسية مذهلة عن تصفية صدام حسين لزملائه الذين قادهم حظهم العاثر فى إحدى المناقشات إلى أن يحبذوا الوحدة مع سوريا، ومع صدق نوايا هؤلاء فى رأى أحمد عباس صالح فإن صدام لم يكن على استعداد لقبول فكرتهم فى إمكان التضحية بمنصبه (مثلا) من أجل قيام دولة عربية قوية على أساس الفكر البعثى.

لهذا فإننا نستطيع أن نفهم مدى الإعجاب الحقيقى الذى يظهره أحمد عباس صالح ويعبر به عن تجربته فى الحياة فى لندن وقد خصص لها (الفصل الخامس والثلاثين من مذكراته)، وفصلا ثانيا جعل عنوانه يعبر عن هذا الإعجاب: مدينة لها جاذبية خاصة، وهو حريص على أن يوظف معارفه النظرية التى تمتها قراءته الأولى فى محاولة فهم مجتمع الإسلاميين فى بريطانيا أو فى لندن على وجه التحديد، وهو يقدم فى هذا الإطار تحليلات سريعة تعنى بوصف الواقع الذى يفوق كل تحليل، وكل قدرة على التحليل.

(٣)

وتقدم هذه المذكرات بقدر من التحفظ المصرح (إن جاز هذا التعبير) انطباعات صاحبها المبكرة عن معرفته بميشيل عفلق فى أثناء إقامتهما فى العراق، وربما كانت هذه المذكرات من أولى الأدبيات التى أطلعتنا على المعاناة التى كان يعيش فيها هذا الرجل الرمز فى الوطن العربى الذى كان يصوره للناس قائدا موجها، بينما هو فى حالة أقرب ما تكون إلى تحديد الإقامة.

وقد أجاد المؤلف التعبير عن مشاعره مع تجارب المرض التى مر بها وهو فى خارج

وطنه فى العراق، وفى ليبيا، وفى بريطانيا، بيد أن هذا التعبير كان فى مجمله تعبيرا آليا ميكانيكيا لا يكاد يقارن بمشاعره الصادقة والدافئة فى مواقف أخرى، كذلك فإنه يروى تجربة زوجته التى عاشت المرض ثم الشفاء، ثم المرض مرة أخرى، وقد تنقل معها وبها فى معاهد العلم والعلاج التى قدمت لها أفضل ما كان ممكنا من رعاية كانت تستحقها هذه السيدة العظيمة التى شاركته عن حب وإخلاص حياته الحافلة بالصعاب.

(٤)

وطيلة صفحات هذا الكتاب يبدى صاحب هذه المذكرات أحمد عباس صالح اعتزازا لا حدود له بكتابه «اليمين واليسار فى الإسلام»، وهو يكاد يوحى لنا أنه كان يتمنى أن يقدم نفسه لكل مجتمع بهذا الكتاب، على الرغم من اعتزازه بتاريخه الأدبى فى القصة القصيرة، ثم فى العمل الدرامى الإذاعى، والتمثيليات الإذاعية، وما إليها، ثم عمله أيضا فى الكتابة للسينما.

وربما دلنا اعتزاز صاحب المذكرات بكتابه «اليمين واليسار فى الإسلام» على ما كان يؤمن به أحمد عباس صالح من فكرة التقدم وضرورتها الملحة أو الحتمية لمجتمعه ووطنه، ومع أنه كان بحكم تكوينه الفكرى، والمجتمع الذى بدأ حياته فيه، يظن التلازم حتما بين الحداثة والتقدم والوطنية والعروبة والعدالة الاجتماعية، فإن رحلته التى تصورها سطور المذكرات وفقراتها وفصولها تكاد تجعلنا نفقد الأمل فى إمكان تحقيق بعض ذلك التلازم، وربما معظمه، لكن حياة الرجل نفسه تطمئننا على أن الأمل فى القيم العليا لا يخذل صاحبه، وأن عدالة السماء تكفل له تعويضا آخر من حيث لا يدرى، وربما من حيث لا يحتسب.

(٥)

ومع كل هذا التأمل للحياة المعاصرة فإن أحمد عباس صالح لايزال معتزا بالمحطات الفكرية المؤثرة فى حياته الأولى، وهو يتحدث عن عمله فى بداية حياته مع واحد من رواد العلم فى الأزهر، الذين مارسوا الإصلاح الاجتماعى وهو الشيخ محمود أبو العيون، وهو كما سنرى فى مدارستنا لهذا الكتاب يثنى عليه الثناء كله، ويدلنا على جوانب رائعة فى فكر هذا الرجل، وأدائه، وسلوكياته.

كما يدلنا على جوانب مضيئة فى سلوك الأستاذ العقاد، وأبوته، وإنسانيته.

وفى مقابل هذا الإعزاز والتقدير نجد أن حديثه عن رجال الثورة مشوب بكثير من التحفظ، فهو يروى كيف عرف السادات قبل الثورة، وكيف أنه كان هو الذى تولى كتابة استقالة عبد الحكيم عامر الشهيرة فى بداية الستينيات، وكيف أتيح له أن يعرف صلاح سالم ونشاطه فى السودان.

(٦)

ويميل أحمد عباس صالح إلى المجاهرة بالقول بأن التأميم والتوجه الاشتراكى الذى بدأه عبد الناصر كان ضربة لجماعات المشير عبد الحكيم عامر فى ظل صراع الرجلين على السلطة، ومن العجيب أن يكون هذا هو توصيف واحد من اليساريين لهذه الخطوة الجبارة على طريق التحول الاشتراكى.

ومع هذا فإنه يعترف أنه ويوسف إدريس وقفا وهما لا يكادان يصدقان عندما سمعا عبد الناصر يعلن أول قرارات التأميم:

«... وكنت قلقا بالطبع من هذا الصراع بين الرجلين الذى وصل إلى درجة التفكير فى إزاحة عبد الناصر. على أن الخطبة التى ألقاها عبد الناصر فى ٢٢ يوليو لمناسبة الاحتفال بعيد الثورة، كانت مفاجأة كبرى، وكان يوسف إدريس عندى فى البيت ونحن نسمع خطاب عبد الناصر، وإذا به يعلن أول قرارات التأميم. نهضنا واقفين ونحن لا نكاد نصدق. ولكننا أدركنا على الفور أن هذه ضربة قاصمة لجماعات المشير. وأن مشروع أى انقلاب ضد عبد الناصر سوف يؤول على الفور بأنه عمل رجعى مضاد للثورة "الشعبية"، وسوف يكون من العسير، إن لم يكن من المستحيل القيام بأى عمل ضد عبد الناصر بعد هذه القرارات، التى هيجت الشارع المصرى فى جميع أنحاء الجمهورية. وفى العام التالى صدرت جميع قرارات التأميم الأخرى وقانون الإصلاح الزراعى الأخير، والذى أنزل حق ملكية الأرض الزراعية إلى خمسين فدانا، وكانت هذه بداية المنحى الاشتراكى، وبداية الاعتماد على الاتحاد السوفييتى فى بناء السد العالى ثم فى السلاح بطبيعة الحال».

(٧)

ويفاجئنا أحمد عباس صالح بالحديث عن موقف السيدة زوجته من مبادرة السلام، وكان كلاهما فى العراق، وهو الموقف الذى نبهه إلى جانب مهم من الحقيقة، وجعله يعيد التفكير فى كثير من المسلمات:

«. . . عند واقعة ذهاب السادات إلى إسرائيل نشطت أجهزة الإعلام العراقية لاستطلاع آراء المصريين فى العراق فامتلأ بيتى بكاميرات التليفزيون لتسجيل أقوالى وكانت (أى الأقوال) ضد الزيارة بطبيعة الحال . على أن مقدم البرنامج اتجه إلى زوجتى فسألها عن رأيها فإذا بها تقول : "إننى أوافق عليها وأوافق على الصلح . أنا ضد الحرب وعندى خمسة أولاد ولا أريد أن أفقدهم فى الحرب».

«أدهشتنى الإجابة لكنها نبهتنى إلى الجانب الآخر من الموضوع . فها هى حروب ثلاث أفقدت الكثير من الأمهات والآباء أولادهم دون أن يطرأ أى تحسن على حالتهم ودون أن يستفاد من الأخطاء التى أدت إلى خسارة الأرواح والأموال ودون أن يظفر المواطن المصرى بحقه فى الاحترام والرعاية من جانب الدولة . لم تكن هناك أحزاب ولا مؤسسات اجتماعية تحمى الأفراد، وكانت تلك السلطات مع ذلك تطالبهم بهذه التضحيات الكبرى بلا مقابل على الإطلاق».

. . . . . .

. . . . . .

وهو يصل فى النهاية إلى تقرير حقيقة مهمة طالما كابر فيها الكثيرون:

«وكان من الطبيعى أن يسكت الشارع على انقلابات «السادات» وعلى زيارته لإسرائيل حتى يسترد أنفاسه بأمل أن تنصلح الأمور فى الداخل».

(٨)

كذلك فإن أحمد عباس صالح يدلنا على أنه فى أثناء غربته كان قد بدأ يواجه الأمر الواقع فى العلاقات الدولية فيما يتعلق بالصراع العربى-الإسرائيلى، وهو يفاجئنا بالحديث عن إحباطه حين حضر مؤتمرا دوليا فى كوبا، ووجد بعض الشيوعيين اليهود

يميلون إلى حذف النص على التوصية بإدانة إسرائيل، كما يحدثنا عن اضطراره هو وزملاؤه المصريون إلى لقاء كبار المسئولين فى الحزب الكوبى، والرئيس الكوبى فيدل كاسترو من أجل المحافظة على زخم «إدانة إسرائيل»، وهو يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من ضيق الرئيس الكوبى بهزيمة العرب أمام إسرائيل، ولومه لهم على هذه الهزيمة:

«... لم يكن الأمر سهلا، إذ استُدعينا لمقابلة مسئول كبير فى الحزب لنناقش نفس الموضوع، فصممنا على موقفنا. ولم تستطع لجنة الصياغة، وكنا ممثلين فيها أن تستبعد قرار الإدانة. وبالفعل صدر البيان وفيه الفقرة التى صغناها وكان انتصارا كبيرا للوفد المصرى».

«وفى المساء وفى الحفل الختامى على ما أعتقد، كان الرئيس كاسترو يتوسط قاعة الاحتفال، فذهب إليه زميلنا نبيل زكى ليعاتبه على الإشكالية التى حدثت أثناء إعداد الصياغة النهائية للبيان الختامى، فرد عليه غاضبا: وهل نحن الذين انهزمنا وانسحبنا أمام الجيوش الإسرائيلية؟».

«كنت أراقب المشهد من قريب، واحتد النقاش قليلا، ولكن كاسترو عاد فخفف من وطأة الحديث. بينما لاحظت عينى نبيل زكى وهما تغرورقان بالدموع».

(٩)

ومن الطريف أن أحمد عباس صالح فى أثناء حديثه عن هذه الواقعة يحرص على أن يتقد موقف اثنين من اليساريين الأجانب اللذين عرفا على أنهما صديقان للحق العربى والشعوب العربية، وهما الصحفى الفرنسى الشهير إيريك رولو، ورئيس الوزراء السوفيتى السابق بريماكوف:

«... مهما يكن من أمر، فان كوبا لم ترفض طلبنا وتجاوبت معنا، وكذلك لجنة الصياغة. ولكن الذى أثار دهشتنا هو حماسة إيريك رولو الذى لم نره أو نكلمه بعد ذلك. ولم يكن موقفه فى الحقيقة بأسوأ من موقف بريماكوف. إذ كانت فكرته عن السلام بين إسرائيل والعالم العربى متشابهة، أى التسليم الكامل بقيام الدولة

الإسرائيلية على الأسس العنصرية، وليس على حق المواطنة، بصرف النظر عن العرق أو الدين . وقد ظل رولو يعمل فى صحيفة «لو موند» إلى أن عين سفيرا لفرنسا فى تونس على ما أذكر . ومازال يعتبر خبيرا فى الشئون العربية يظهر فى الفضائيات العربية بين وقت وآخر».

(١٠)

ونقتطف من حديث أحمد عباس صالح الطويل عن تكوينه فيما قبل الثورة بعض الفقرات التى يحاول هو نفسه من خلالها أن يصور الملامح التى أثرت فى شخصيته، أو التى ساعدته فيما بعد :

فمن حديثه عن ملامح التدين المبكر فى حياته ننقل قوله :

«. . . كنت أحضر مبكرا لأجلس إلى جوار المقعد العالى الذى يتربع عليه الشيخ رفعت حتى أكون قريبا إلى الصوت . . وحينما يصل الشيخ تحدث حركة خفيفة فى الصفوف الخلفية فأقوم أنا ومن حولى من الناس صبية وشبانا لنقبل يد الشيخ الذى ألفنا من طول الاعتياد وأصبح يعرف أسماءنا ويعرف آباءنا ومدارسنا على الرغم من أن المقام لا يسمح بمبادلتنا الحديث لأكثر من لحظات وفى همس شديد».

«. . . وعندما كنت أقبل يد «الشيخ رفعت» كنت أعطى فكرة تبجيل اليد مغزاها الدينى ومبررها الروحى، وعندما كان يرتفع صوت الشيخ رفعت تدريجًا فى صحن الجامع وهو يقرأ سورة «الكهف» وما حدث بين سيدنا الخضر وتلميذه النبى موسى كنت أرتجف من روعة الصوت ومن أحداث القصة ذاتها».

«وكان علىَّ وأنا أصغى بانتباه فى المسجد للصوت المجلجل الرائع، الذى كنت أتصوره قادما من السماء مباشرة، أن أدرك عظمة وضرورة التسليم بما يقدم لى من أوامر ونواه دينية دون أى سؤال، وكان على أن أكون أكثر تعقلا من النبى موسى !».

(١١)

ويفعل أحمد عباس صالح الشىء نفسه فى حديثه عن بعض ملامح تكوينه السياسى، وانظر ،على سبيل المثال، إلى هذه الفقرة التى تصور حيرته بين الانتماءات

المختلفة، ولسنا ندرى لماذا لم يحسم اختياره فى اتجاه الوفد إلا أن يكون الأمر رغبة فى التميز، ومع هذا فإننا نسارع إلى التنبيه إلى ما ذكره أحمد عباس صالح نفسه (فيما بعد) فى واقعية عمله بالإذاعة من أنه لم يكن على استعداد لخيانة الوفد والحديث عن ٤ فبراير بالطريقة التى كان رجال الثورة يحبذونها:

«. . . ذهبت إلى النادى السعدى، وهو نادى حزب الوفد القديم، فى صحبة صديقى الكاتب المسرحى نعمان عاشور وجلسنا فى صالون كبير، لم نكن وفديين ولكننا كنا نبحث عن مؤسسة تحمينا، عن تجمع ديمقراطى ننتمى إليه، كنا نريد هذا بغير وعى».

(١٢)

لكن أحمد عباس صالح فى المقابل يتحدث باعتزاز عن لحظات وقوعه فى أسر الشيوعية وحبها:

«جاءنا مسئولنا ومعه محاضرات مكتوبة على الآلة الكاتبة عرفت بعد ذلك أنها مترجمة عن الدروس التى كتبها "بوليتزير" - وهو أحد الشُّراح الفرنسيين للماركسية - كدروس للعمال فى الحزب الشيوعى الفرنسى، وكانت تتناول النظرية الماركسية فى الفلسفة والاقتصاد والتاريخ وكانت صدمة بالنسبة لى. شعرت بعد عدد من المحاضرات أننى وقعت على ضالتى وأننى أصبحت أخيرا أعرف أسرار الدنيا، وبدأت أتعرف على شىء من التفصيل أكثر».

(١٣)

ومن ملامح النشاط اليسارى يؤثر أحمد عباس صالح أن يتحدث عن شخصية شبه عمالية مغمورة، لكن فهمها كان سابقا على نشاط المثقفين والمتعلمين:

«وفى الفترة التى كنت أتحدث عنها - أى فى حوالى سنة ١٩٤٨ - صرنا أعضاء فى لجنة منطقة شبرا الخيمة فى تنظيم «حدتو» وكانت هذه اللجنة تجتمع فى شبرا الخيمة بعد أن ننهى اجتماعاتنا مع الخلايا المسئولين عنها، وكانت فى أغلبها مشكلة من قيادات العمال فى هذه البلدة العمالية المليئة بالنشاط الصناعى. وكنا بالفعل نملك قوة تأثير كبيرة».

«وكنت مسئولا عن خلية تضم ألمع القيادات العمالية . وكنا نجتمع فى بيت واحد منهم لا أذكر إلا الاسم الأول من اسمه الآن وهو محمد، وكان شابا فى الثلاثين من عمره بينما لم أكن قد تجاوزت الثانية والعشرين . وكان رجلا أسمر اللون يرتدى عادة جلبابا أبيض بالغ النظافة، وكان يقابلنى فى شارع معين لتتجه إلى بيته فنمر على المقاهى والدكاكين فيقرأ على الجالسين السلام فأجد حماسة فائقة منهم حتى أنهم كانوا يقفون إجلالا له وردا على تحيته».

«وكان رجلا متواضعا وبالغ التهذيب حتى أن مشيته تضطرب خجلا وهو يتلقى هذه الردود التبجيلية والمحبة . أما بيته فكان حجرة فوق سطوح منزل يشبه غيره من البيوت فى هذه المدينة العمالية التى لم تخل من الطابع الريفى، أما بقية السطوح، والذى لم يكن مبلطا، فكان مكنوسا ومرشوشا ونظيفا، وكنت ترى صينية نحاسية لامعة وعليها قلل الماء المغطاة بأغطية نحاسية تبرق كالذهب من فرط العناية . وكانت امرأته شابة وسيمة التقاطيع إلى حد الجمال اللافت للنظر، وكانت هى المسئولة عن كل هذه النظافة والعناية، وكان من الواضح أنها امرأة قوية تمثل أجمل ما فى المنظومة الأخلاقية السائدة فى هذا المجتمع العمالى مثل روح التضامن والأخوة الصادقة وتحمل المشاق . كانت كريمة حتى بشىء من الاندفاع، وكانت شديدة الفطنة والذكاء فضلا عن إحساسها باللياقة فى أعلى درجاتها . كنا نجتمع فى هذه الحجرة الصغيرة نفترش الأرض على حصير نظيف وشلت منجدة بشكل جيد، والبعض يجلس على السرير الوحيد فى الغرفة . كانت تخرج وتتركنا وحين تعد الشاى تطرق الباب ثم تدخل لنا صينية الشاى وتنصرف».

«شغلتنى هذه الأسرة الجميلة فى هذه البقعة المليئة بالبؤس والمخاطر . وقد عجبت للأسلوب الراقى الذى يتعامل به محمد مع زوجته، فهو أبعد ما يكون عن سى السيد فى ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة «بين القصرين» وعلى الرغم من احتشامها إلا أنها كانت تحادث ضيوف زوجها كأخوة لها وليسوا رجالا أغرابا ودون خجل مدعى أو محاولة لتغطية الوجه أو الاختباء، وكان واضحا جدا أن بين الرجل وزوجته حبا غير عادى يصل إلى درجة فناء كل منهما فى الآخر، وكنت أرى ذلك فى عيون رفاق الخلية

الذين كانوا جميعا من زعماء العمال فى هذه البلدة . وقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل كان يقتسم أجره مع من يتعطل من زملائه أو يصيبه المرض، فضلا عن بذل الجهد من أجل إعادة هذا العامل أو ذاك إلى عمله أو الصلح بينه وبين رئيسه فى أمر من الأمور الجارية عادة بين العمال فى مكان عملهم . وربما كان يُلجأ إليه فى حل المشاكل العائلية بين العمال وزوجاتهم أو أولادهم، وكانت زوجته تلعب دورا فى هذا المجال، وكانت لها - على صغر سنها - كلمة مسموعة فى البلد».

(١٤)

ثم يتحدث أحمد عباس صالح عن اختلاف هذا الزعيم العمالى مع القيادات المركزية، مع أنه كان على الحق حسبما يتصور صاحب هذه المذكرات، ومن العجيب أن أحمد عباس صالح يستطرد من هذا الموقف مباشرة إلى انتقاد الزعيم المؤسس لحركتهم الشيوعية، وإلى الحديث عن نهايته، مضفرا هذا بحديثه هو عن انفصاله عن هذه الحركة منذ ذلك الحين:

«. . . انتصر محمد إذ كان جميع أعضاء الخلية من رأيه وقد انضممت بالفعل إلى هذا الرأى أنا الآخر . وعندما عدت إلى لجنة المنطقة التى كنت عضوا فيها وافقونى على ذلك . وكان من الطبيعى أن نراجع اللجنة المركزية بواسطة المندوب المشارك لنا فى لجنة المنطقة، ولكننا تعرضنا لمجادلات عقيمة مما شككنا فى جدية الحركة وفى تأويلاتها للماركسية».

«وكان من حقنا أن نتساءل عن معنى أن يكون زعيم المنظمة رجلا يهوديا بالذات، ولعلى فكرت: لو كان الرجل جادا ومخلصا للمبادئ الاشتراكية لخلع نفسه من الزعامة وتركها لرجل من المصريين، ولكنه لم يفعل ذلك أبدا إلى أن اضطر مرغما أن يهاجر إلى إيطاليا أولا، وأن ينخرط فى الحزب الشيوعى الإيطالى، والذى لم يلبث أن اختلف معه وسافر إلى فرنسا ممارسا نشاطه حول قضايا الشرق الأوسط حتى اغتاله شخص ما أو جماعة ما وهو متجه ليركب المصعد إلى شقته فى باريس . وقد صدر عن اغتياله وحياته كتابان أحدهما لمؤلف مصرى والآخر لمؤلف فرنسى، وقد قرأت الكتابين بعد مجادلات شبرا الخيمة بأكثر من أربعين سنة فلم تتبدد شكوكى التى خالجتنى فى تلك الأيام».

«بالطبع قدمنا جميعا استقالتنا بما فى ذلك تنظيم شبرا الخيمة كله وانقطعت صلاتى عن الجميع».

(١٥)

وإذا كان حديث كل مؤلف عمن عرفهم فى شبابه من رجال السياسة معبرا بطريقة أو أخرى عن رؤيته هو لملامح تكوينه السياسى المبكر، فإننا نجد نموذجا معبرا فى روايات أحمد عباس صالح المتناثرة فى مذكراته عن الشخصيات السياسية التى قدر له أن يعرفها، وهو على سبيل المثال يتحدث عن الفرصة المبكرة التى أتيحت له كى يعرف الرئيس السادات عن قرب:

«. . . بالطبع لمع اسم السادات قبل ذلك مع حادثة اغتيال أمين عثمان واتهامه بالاشتراك فيها، ومع أننى قابلته بعد ذلك فى مقهى عبد الله فى الجيزة، حيث كان يعمل فى سيارات النقل الكبيرة بعد أن فصل من الجيش، وكان ينزل أحيانا ضيفا على زكريا الحجاوى، الذى كان يسكن قريبا من المقهى. وكان يأتى إلى المقهى فى سنة ١٩٤٦ مبكرا قبل أن يصل الجُلاَّس من كبار الأدباء وأساتذة الجامعة الذين أتيت من أجلهم، فأجلس إليه، أتحدث معه وهو يشرب الشاى بصوت مسموع ويدخن سيجارة ويلمع حذاءه، وكان هو الذى يتحدث - على الأغلب - عن رؤيته السياسية التى كانت خليطا من برنامج الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل وحركات الاغتيالات السياسية مثل اليد السوداء. وكان فى حديثه العادى أقرب ما يكون إلى الخطابية والانفعالية، وكنت أجد متعة ما فى الاستماع إليه على الرغم من اختلافى تماما مع الكثير من آرائه».

(١٦)

كذلك فإن أحمد عباس صالح يتحدث عن معرفته المبكرة بفتحى الرملى:

«على أن الذى لفت نظرى هو رجل يلبس (أوفر أول) ويجول فى الشوارع وهو يحدث الناس عن مصالح العمال وعن الاشتراكية. وكان يرفع على مدخل بيته، الذى كان يقع على ناصية شارع مجلس النواب وعماد الدين من ناحية الناصرية، لافتة باسم

فتحى الرملى . . مرشح العمال والاشتراكية، وكان يعقد اجتماعاته الدعائية فى حوش بيته الواسع».

(١٧)

كذلك تحفل هذه المذكرات بما لايزال صاحبها يذكره عن بعض نجوم الفن فى الهيئة التى قدر له أن يراهم فيها دون أن يتجاوز هذه الذكريات إلى حديث عن القيمة أو الأثر الوجدانى:

«. . . والقصبجى، الذى كنت أراه فى الصباح ببدلته السوداء الكاملة وهو يحمل طبقا فارغا ليشترى الفول المدمس لإفطار الصباح».

(١٨)

ويشير أحمد عباس صالح بالطريقة نفسها إلى كثير من ذكرياته عن الأدب والثقافة والصحافة، فيتحدث عن أول لقاء جمعه بمحمد عودة بادئا مرحلة من الصداقة التى استمرت حتى كتابته لمذكراته:

«. . . كنت أقرأ قصصى لشكرى عياد بصفة خاصة، وعندما قرأت عليه آخر قصة طلبها منى ليقدمها لمجلة «مسامرات الجيب» وواعدته أن ألتقى به فى المجلة، وبالفعل ذهبت إلى هناك فوجدته يجلس فى حجرة مع شخص آخر كان هو سكرتير تحرير المجلة، الذى قدمنى إليه باعتبارى مؤلف القصة التى أعطاها له منذ قليل . لم أكن جاوزت الثانية والعشرين بعد، وكنت متهيبًا ومترددًا رغم اعتيادى النسبى على الذهاب إلى مقار الصحف والمجلات، على أنى كنت أذهب لأن لى صديقا هناك أحتمى به، ولكن سكرتير التحرير ما إن سمع اسمى حتى صاح: هذا عمل رائع أنت "أندرييف" المصرى».

«وكان استقبالا خطيرا أثلج صدرى، وأذهب خوفى وحذرى، وسرعان ما ربطت بينى وبين هذا الرجل صداقة عميقة استمرت إلى اليوم . وكان هذا الرجل هو محمد عودة الكاتب الواسع الشهرة الآن أمد الله فى عمره».

(١٩)

ويشير أحمد عباس صالح إشارة واضحة إلى دور الأستاذ أنور المعداوى فى مجلة «الرسالة»، وهو الدور الذى لايزال بحاجة إلى تقدير:

«... وكان الناقد أنور المعداوى الذى يكتب مقالا أسبوعيا فى مجلة «الرسالة» رائدا يوميا للمقهى ويجمع حواليه الكثير من الكتاب، وكان أقرب ما يكون إلى المحافظة فى التفكير، وكان فيه شىء من الخشونة والاعتداد بالرأى ويبدو أن أحمد حسن الزيات كان مرتاحا له إذ لاحظت أن له سيطرة ما على ما ينشر فى المجلة ذات الشهرة الثقافية الواسعة ليس على المستوى المصرى فقط، بل على مستوى العالم العربى كله».

(٢٠)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن كبار الأدباء الذين عرفهم على مستوى التجمعات الأدبية الحرة:

«... كنت مستمعا فقط فى هذه الندوة الحرة فى أغلب الأحوال، فهنا رأيت الكتاب الذين كنت أعجب بهم وأسعى إلى متابعة مقالاتهم مثل محمد مندور ثم وجدت أن لويس عوض يرتاد المقهى أيضا والشاعر محمود حسن إسماعيل والكاتب السورى سامى الدروبى، الذى لمع بعد ذلك وصار سفيرا لسوريا فى القاهرة، ثم وزيرا على ما أعتقد وكان قد ترجم الأعمال الكاملة للكاتب الروسى العظيم "فيدور دستويفسكى" والتى نشرتها هيئة الكتاب المصرية، وكذلك شاهدت على أدهم الذى كانت له كتب رائعة خاصة فى سيرة الشخصيات التاريخية، ولعلى كنت قد أنهيت قراءة كتابه عن الخليفة المنصور وانبهرت به».

«هذا على الرغم من أن هؤلاء الكتاب كانوا ذوى نزعات يمينية، وكانت أفكارهم فى الشئون الأخرى تصدمنى، وكان اليمين المطروح ليس راجعا لخلفية واحدة فسامى الدروبى مثلا كان قادما من أفكار القومية العربية التى كانت فى بدايات ظهورها معادية تماما لليسار، وربما كان من مؤسسى حزب البعث العربى فى سوريا، وكذلك الأمر بالنسبة لأنور المعداوى، الذى كان يبغض التفكير الاشتراكى وكان من محبى عباس العقاد، الذى كان قد أصبح أكبر محارب للأفكار الاشتراكية من باب تقديسه لفكرة الحرية الفردية، التى بلورها الفكر اليمينى باعتبارها محور الليبرالية».

(٢١)

على أن أروع الذكريات الأدبية لا تأتينا فى هذ الكتاب إلا عندما يتحدث أحمد عباس صالح عن لقائه الأول بالشاعر إبراهيم ناجى، وكيف أحس تجاه هذا الرجل العظيم بانبهار حقيقى لا حدود له، وبتقدير عميق، وبإعجاب شديد بروحه الإنسانية، وبشخصيته الحافلة بالإنسانية والحكمة:

«. . . وكانت هذه الجريدة «صوت الأمة» تصدر من بيت فى المنيرة قريب أيضا من النادى السعدى مقر الحزب . وكانت الجريدة قد قررت أن تصدر مجلة للقصة وأسمتها بالفعل مجلة «القصة»، واختارت لرئاسة تحريرها الشاعر الشهير إبراهيم ناجى، الذى كان طبيبا فى نفس الوقت . كنا نحب شعر ناجى ونعرفه نحن المبتدئين، ولكنى لم أكن أعرف أنه ناقد كبير إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، حيث قرأت له دراسات نقدية بالغة العمق وتنطوى على معرفة واسعة بالأدب ونظرياته».

«وكانت الدار الصحفية قد اختارت له حجرة جانبية فى حوش واسع داخلها، وكنت قد أنهيت قصة قصيرة منذ قليل وقررت أن آخذها وأذهب إلى الدكتور إبراهيم ناجى، وبالفعل دخلت من بوابة البيت القديم ولا أذكر أنه كان هناك بواب أو حارس وأرشدنى شخص ما إلى حجرة الشاعر فطرقت بابها وسمعت صوت الإذن بالدخول، ففتحت الباب ورأيت رجلا قصيرا أصلع شعر الرأس تماما يجلس إلى مكتب ويتطلع إلىّ، لم يلبث أن دعانى للدخول بشىء من الترحاب أذهب الكثير من اضطرابى، وأشار إلى كرسى إلى جانب المكتب فجلست وهو ينظر إلىّ متطلعا، فقدمت إليه القصة وبدلا من أن يضعها فى درج مكتبه ويعدنى بقراءتها فيما بعد إذ به يفض الأوراق ويشرع فى القراءة، وهو يسألنى عن نوع القهوة التى أشربها ويضغط على جرس فوق مكتبه فأجبته وعيناه على الأوراق، ولم يلبث أن استغرق فى القراءة، وقد تملكنى الاضطراب والخوف فهأنذا أدخل امتحانا قاسيا ووجها لوجه . ولعله لاحظ اضطرابى إذ أنه، وقد خلع طربوشه ووضعه إلى جانبه على المكتب، راح بين وقت وآخر يمسح على رأسه بكفه علامة على الإعجاب، وأظنه لم يفعل ذلك إلا ليطمئننى ويهدئ روعى، على أنه لم يكد ينهى القراءة حتى قام وخرج من وراء مكتبه وهو يعانقنى ويصيح بفرحة : إنى أعطى على القصة جنيها كمكافأة ولكننى سأعطيك ثلاثة جنيهات».

«تنفست بارتياح شديد ورحت أتأمل الرجل وهو يحادثنى شارحا أسباب إعجابه بالقصة . كان واسع العينين يتفجر بالحماسة والطيبة، وعلى الرغم من أن الثقافة الماركسية، ربما فى بلاد العالم الثالث، كانت تمنح المتعرف إليها ثقة بالنفس بسبب ما تفتحه أمام دارسيها من مغاليق، وربما كان الانضمام لتنظيم سرى وما فى السرية من معنى الترفع والكتمان على الآخرين، خاصة إذا كان الإنسان فى مقتبل العمر، كل هذا كان ينعكس فى شكل شىء من التعالى وأحيانا الغرور، ولكنك أمام الشاعر العظيم الممتلئ بالعلم والمحبة تصبح سريعا مجرد مريد . وهذا ما حدث لى بالضبط وكنت محبا للشعر حبا شديدا وأصبحنا بالفعل صديقين».

(٢٢)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن تطور علاقته بالشاعر إبراهيم ناجى حديثا ممتعا لا يخلو من تصوير جميل للواقع الثقافى فى ذلك العهد الذى شهد نمو مثل هذه العلاقات الراقية، ويكفى أن يصور لنا أن الشاعر اشترى له هدية قيمة لا لشىء إلا لأنه يحب الشعر:

«كنت أذهب إلى المجلة لأخرج معه بعد أن ينهى عمله بصرف النظر عما إذا كانت لى قصة أم لا . وكنا نخرج من المنيرة إلى شارع قصر العينى الذى كان مظلما وفارغا تماما من العابرين لأن أغلب مبانيه كانت حكومية، وكانت الإضاءة فيه ضعيفة، فيتلو آخر ما يكتبه من شعر، وفى هذا الطريق شبه المظلم كنت أصغى إلى صوته وهو يتلو شعره راقصا تقريبا مع وزن الشعر وإيقاعاته، وقد استمعت بصفة خاصة إلى قصيدة «الأطلال» التى غنت أم كلثوم مقاطع منها بعد ذلك بزمن طويل».

«كنت مبهورا وكان الشعر بالغ الجمال، وأظن أنه لم ينه النظم مرة واحدة إذ كان يقرأ المقاطع التى انتهى منها، وفى اليوم التالى استمع إلى الجزء التالى حتى إذا أنهى القصيدة . كنا قد خرجنا من شارع قصر العينى المظلم إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير) المتوهج بأنوار النيون الباهرة، التى تلمع بالإعلانات المختلفة فوق عمارات الميدان العالية».

«كان سعيدا جدا وكنت قد بلغت الذروة فى الاستمتاع بجمال الفن وبالتجربة الرائعة البالغة الحساسية التى ترويها هذه القصيدة، حتى انعقد لسانى وعجزت عن الكلام . وكان على رأس الميدان محل للألبان والأيس كريم يدعى «استرا» وبجواره محل ساطع الإضاءة يبيع السجاير والشوكولاتة وهدايا مختلفة . توقف إبراهيم ناجى أمام هذا المحل لحظة وكأنه يفكر ثم استأذننى ليدخل . وقفت وأنا مازلت تحت تأثير التجربة الشعرية الرائعة حتى أننى بالكاد تنبهت إلى عودته وإذا به يقدم لى علبة فلما ترددت قال : خذها إننى اشتريتها لك».

«كانت علبة أنيقة مبطنة بالقطيفة الزرقاء الجميلة وكان فيها قلم حبر «باركر» الذى كان ثمينا بالنسبة لى . وقال ليشجعنى أو يطمئننى : إنك تستحقه لأنك تحب الشعر».

(٢٣)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن أستاذية إبراهيم ناجى لطلاب الطب الثلاثة الذين اشتهروا بالأدب بعد ذلك، وهى أستاذية غير مشهورة فى ظل ماوصلوا إليه من شهرة فى عهد كان يحبذ إنكار دور الأساتذة والبدء من الصفر :

«. . . وفى هذا الشارع، كان عدد من العمارات مبنية على الأسلوب الإيطالى غالبا، وكان إبراهيم ناجى قد استأجر غرفة واسعة فى أحد هذه المبانى لتكون مقرا لجمعية ثقافية أنشأها ضمت مجموعة من تلاميذه ومحبيه من المهتمين بالأدب والفن، وفيها التقيت أول مرة بعدد من الكتاب والشعراء الجدد منهم صلاح حافظ، الذى كان يكتب الشعر فى ذلك الوقت، والذى أصبح كاتبا صحفيا شهيرا بعد ذلك، ومحمد يسرى أحمد وكان يكتب القصة القصيرة، وكان معهما أيضا يوسف إدريس الذى نشر قصة أو قصتين فى مجلة «القصة».

«لاحظت بالطبع أن كل هؤلاء كانوا طلبة فى كلية الطب وكان من الطبيعى أن يلتفوا حول الشاعر الشهير ناجى الطبيب أيضا».

(٢٤)

ولا يبخل أحمد عباس صالح علينا بحديث عن دوره فى إصدار مجلة «الأديب

المصرى» تحت قيادة الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، لكنه سرعان ما يتخذ من هذا الحديث مدخلا للحديث عن قراره الذى اتخذه بإكمال دراسته على نحو يتيح له أن يكون صاحب شهادة، وهو يعترف أن توجهه نحو استكمال تعليمه على هذا النحو كان شيئا من العبث، بل إنه يصل إلى وصفه بالمصارعة الطفولية، والمباهاة الساذجة:

«قد صرت فى الثالثة والعشرين من عمرى، وكنت قد اشتركت مع مجموعة الأصدقاء فى إصدار مجلة اخترنا لها عنوان «الأديب المصرى»، حتى تتميز عن الاسم الشهير لمجلة «الكاتب المصرى» التى كان يصدرها طه حسين، وربما كانت المجلة الأخيرة قد اختفت. وقد قاد هذه المجموعة من الكتاب كاتب وشاعر مخضرم هو محمد مفيد الشوباشى إلى جانب عدد من الكتاب المرموقين، مثل لويس عوض ومحمد مندور ثم زكريا الحجاوى ونعمان عاشور وأنا وآخرون. وكنا عادة نعقد اجتماعا للتحرير ثم نتفق على مجمل مواد العدد القادم. وكان من التكليفات التى كلفت بها أن أكتب عن أدب الشباب فى مقابل كاتب آخر سوف يكتب عن أدب الشيوخ. وبالفعل عندما بدأت أفكر فى الموضوع وجدت أن هذا تصنيف غير دقيق فإذا كان المقصود بأدب الشباب هو الجدة والحداثة فإن هناك الكثير من الأدباء الشباب الذين يكتبون أدبا رجعيا ويفكرون بشكل متحجر، بينما أدباء شيوخ يعبرون عن أفكار حديثة ويمتلئون بالحيوية. ورحت أقارن بين النوعين، وضربت مثلا بالناقد والكاتب أنور المعداوى كنموذج على الكتابة المحافظة والجامدة وسلامة موسى الذى كان مليئا بالحيوية».

«ومضى المقال بعد ذلك لتحديد سمات أدب الشباب وأدب الشيوخ وإبعاد عامل السن كعامل وحيد يحدد نوع الكتابة. وكان من عادتنا أن نجتمع ونقرأ مقالات العدد ونقيمها وعندما انتهيت من قراءة مقالى هب الكاتب الآخر الذى كلف بالكتابة عن أدب الشيوخ وهاجم المقال هجوما عنيفا، أولا لأنه ناقش الموضوع من زاوية مختلفة عن الزاوية التى عالجه بها هو، وثانيا لأنه كان صديقا لأنور المعداوى، الذى كان صديقا لى أيضا، ولكن الكاتب كان غارقا فى اليمينية وربما أذاه رأيى ففقد أعصابه وصاح قائلا: كيف يقيم معايير الكتاب شخص ليس معه إلا الشهادة الابتدائية؟ ورد

عليه زكريا الحجاوى بشىء من السخرية : لا تنس شهادته من المعهد البريطانى فهى من كمبردج» .

«وقد تأملت هذا الحوار وأوجعنى خاصة إشارة الحجاوى التى تحتمل السخرية أيضا وإن كانت فى صورة الدفاع عنى» .

«فى هذه الليلة لم أنم حقيقة لا مجازا . وكنت لا أحب العقاد ولكنى كنت أسمع همسا من خصومه باتهامه بالجهل وأنه غير متعلم فى الواقع ، مع أننى كنت أعتبره مفكرا كبيرا ، وقلت لنفسى إنك مازلت فى البداية ومن الواضح أنك متجه إلى مصادمات كثيرة وزمانك غير زمان العقاد وسوف تعايَر كثيراً من ناحية الشهادة وعليك أن تحصل على شهادة» .

«عندما أتذكر هذا الآن ، أرى كم كان فيه من عبث ومعاندة شخصية وتفاهة سواء من الشخص الذى هاجمنى أو منى (أنا) الذى أخذت الأمر بشكل جدى ، فلقد قلبت حياتى رأسا على عقب من أجل شىء عابث ومصارعة طفولية ومباهاة بالغة السذاجة. وبالفعل ، ومع أنه لم يكن باقيا على انتهاء السنة الدراسية إلا أربعة شهور ، حتى ذهبت إلى مدرسة ليلية ، وعرفت أنه من الممكن لطالب المنزل أن يدخل امتحان السنوات الأربع لمرحلة الثقافة العامة التى تقتضيها الدراسة المنظمة فى سنة واحدة ، وكان علىّ بالفعل أن أعرف بالضبط برنامج الامتحان بشكل كامل» .

(٢٥)

وربما تجعلنا هذه الذكريات نعود إلى ذكريات صاحبها عن جوهر التعليم الذى حظى به ، حيث يتحدث أحمد عباس صالح فى سرعة بالغة عن بعض ملامح تعليمه الذى كان أبرز ما فيه دراسته فى المعهد البريطانى حيث أتقن الإنجليزية :

« . . . وهكذا نُصحت بأن أنضم إلى المعهد البريطانى ، الذى أنشأه المجلس البريطانى فى الكثير من مدن البلاد الواقعة تحت الاحتلال الإنجليزى أو داخلة فى الـ «كومونويلث» ، وكان المعهد يشترط معرفة سابقة باللغة الإنجليزية ولو بدرجة بسيطة . وبالفعل أمضيت حوالى أربع سنوات أدرس اللغة الإنجليزية وآدابها ، وهناك التقيت بـ

«جونسون ديفز»، الذى كان يدرس لنا الإنجليزية، وكان يعرف شيئا من العربية ومهتما بأدب القصة العربية، وكان يترجم إلى اللغة الإنجليزية بعض هذه القصص . ومرت السنون وإذا بى أعرف أن الرجل قد استقر أخيرا فى مصر وتزوج من مصرية».

(٢٦)

وعلى نحو ما فعل صاحب هذه المذكرات فى حديثه عن تكوينه الثقافى والتعليمى فإنه لا يبخل علينا بأحاديث مطولة عن تجاربه شبه الثرية فى الوظائف التى قدر له أن يعمل بها فى المرحلة الأولى من حياته حيث أتيحت له خبرات تراكمت حتى كونت شخصيته على النحو الذى تطالعنا به المذكرات، وهو على سبيل المثال حريص على أن يذكر تجاربه المبكرة فى العمل الحر:

«. . . واقترح على أبى أن يأخذنى إلى مكتب المحاماة الذى يعمل فيه ليعلمنى الكتابة على الآلة الكاتبة، وأنى سأحصل على مبلغ جيد . وبالفعل أخذنى إلى مكتب المحامى عبد الرحمن البيلى، الذى كان فى هذا الوقت من كبار المحامين وعضوا فى مجلس النواب ثم صار وزيرا للمالية بعد ذلك، وهناك تدربت على الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أجدتها بالفعل، وأظن أنى أعطيت ثلاثة جنيهات مرتبا شهريا . وفى هذا المكتب، شاهدت المشاهير من رجال السياسة ورحت أقلب فى كتب القانون ولكنى أذكر أن اهتمامى تركز على محاضر جلسات مجلس النواب، إذ كنت أتسلى بها عندما يتركوننى وحدى فى المكتب نهارا».

. . . . . .

. . . . . .

«بدأت أتقلب فى عدة وظائف هنا وهناك حتى عملت أخيرا فى شركة للتأمين فى سنة ١٩٤٧ ، غالبا مساعدا لمحام أجنبى، كان عليه أن يحرر عقود الرهن التأمينى لزبائن هذه الشركة . وكان نظام الشهر العقارى أو التسجيل قد انتقل من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وفقا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى تنص على تعريب كل شىء . وكان على أن أتفهم تفاصيل الموضوع وشروط الرهن وأصوغ العقد باللغة العربية قياسا على

نموذج منقول عن الفرنسية . وكان مرتبى قد قفز إلى خمسة وعشرين جنيها، وهو مبلغ كبير جدا بالقياس إلى هذا الوقت».

(٢٧)

ونأتى الآن إلى أهم فقرات هذا الكتاب من حيث التجربة الإنسانية الحقة، وهى حديث أحمد عباس صالح عن الشخصية المحورية التى أثرت فى تكوينه حين بدأ يعى أثر عناصر التكوين فى صياغة الشخصية، ومن المذهل أن يكون صاحب هذه الشخصية هو الشيخ الأزهرى الشهير محمود أبو العيون:

«. . . عندما تم تعيينى فى إدارة الجامع الأزهر، كان قريبى الكبير مديرا للمستخدمين حسب التسمية الجارية حينذاك، ولكن بالصدفة كان لى قريب آخر وهو زوج ابنة عمى مديرا لمكتب شيخ الأزهر الذى كان الشيخ الشناوى، وكان أبى عندما عرف رغبتى فى الانتقال إلى وظيفة حكومية لأتمكن من بعض الوقت لمتابعة الدراسة قد خاطب قريبنا هذا لأسباب لا أعرفها مما أثار غضب زوج ابنة عمى، والذى كان قريبا جدا لنا أيضا، على أنه لم يعرقل تعيينى بحكم وضعه البالغ الأهمية كمدير لمكتب شيخ الأزهر بل اختارنى لأكون السكرتير الصحفى للشيخ . وبالفعل صار لى مكتب ملحق بمكتب شيخ الأزهر، وكانت الصحف تأتى إلىّ كل صباح وكان علىّ أن أقص كل ما يخص الأزهر وأضعه فى ملف وأعرضه على الشيخ عندما يحضر . وكثيرا ما كنت أعلق على هذا الخبر أو ذاك عندما يسألنى . وصارت القرارات الصادرة عن الأزهر تأتينا لأمليها على الصحفيين الذين يأتون من أجل هذا الغرض . وربما كنت أعيد صياغتها بما يناسب النشر فى الصحف».

«قضيت ستة أشهر عندما دخل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر والذى كان نجما شهيرا تتابعه أغلب الصحف إذ كان يقود حملة لتحريم بيوت الدعارة المرخصة رسميا، وكثيرا ما كانت الصحف تصوره وهو يعظ الفتيات على البلاج وهن يلبسن المايوهات، أو يتحدث عن الآثار الضارة اجتماعيا بسبب إباحة الدعارة واستباحة العرى، على أنه كان أحد زعماء ثورة سنة ١٩١٩ الكبار الذين طالما هيجوا الشارع المصرى والطلبة مشتركا فى الخطابة مع القسس المصريين ومؤثرا تأثيرا بالغا على

المجتمع المصرى، وكان فى الرجل ميل للدعابة المرحة ولكن المهذبة، ولم أكن أعلم أنه من أسرة صوفية لها شهرة فى الصعيد كبيرة، وجدهم على ما أظن يعتبر وليا من أولياء الله ومسجده فى البلد مزار للناس».

«دخل الشيخ أبو العيون مهرولا إلى مكتب شيخ الأزهر مارًا بى وهو يحيينى وفتح باب الشيخ ثم أشار إلىّ بأن آتى وعندما أصبحت أمام الشيخ وأمامه قال : "أنا عاوز الواد ده" مشيرا علىّ . ضحك الشيخ الشناوى ولم يزد فعاد الشيخ أبو العيون يقول : لقد عين الشيخ. . . . . لا أذكر الاسم ـ مدرسا وأصبح مكانه خاليا وأنا محتاج لهذا الولد . ضحكت بالطبع إذ كان يقول هذا بأسلوب ظريف وفيه شىء من الألفة والتقدير . كل هذا وأنا بالكاد بدأت أفهم أنه يريدنى للعمل معه فى مكتبه، ونظر إلى الشيخ وسألنى : ما رأيك يا أحمد ؟ فقلت : موافق . فضحك الشيخ وقال : بهذه السرعة ودون أن تفكر فينا على الإطلاق».

«كنت فى الحق قد سئمت هذا العمل الروتينى البليد وإن كنت أحتاج للوقت الذى أوفره للمذاكرة . على أننى استدركت وقلت : هذا إذا أردت أنت يا مولانا . وضحك الرجلان وخرجنا معا أنا والشيخ أبو العيون وهو يمسك بيدى إلى أن وصلنا إلى مكتبه ونظرات الموجودين تتابعنا باستغراب، ومنهم قريبى مدير المكتب الذى يبدو أنه كان لديه علم مسبق بما حدث . وجدت حجرة سكرتير الشيخ أبى العيون السابق، والتى أصبحت حجرتى، نظيفة ومرتبة ولها شباك واسع يطل على الشارع أشبه بالمشربية الجميلة المشغولة بالأرابيسك تتفق مع الطراز العربى الجميل . وكان المبنى مازال أقرب إلى أن يكون جديدا».

(٢٨)

وينتقل أحمد عباس صالح إلى الحديث عن الدور الوظيفى الذى قدر له أن يقوم به إلى جوار الشيخ محمود أبو العيون، وكيف أتيحت له الفرصة المبكرة ليؤدى عملا محوريا فى مجلة ذائعة الصيت هى مجلة «الأزهر» :

«أجلسنى الشيخ أمامه وراح يعدد لى اختصاصاتى وعملى معه . وكان عمل

السكرتير كثيرا جدا، من الإشراف على الامتحانات، إلى تعيين المدرسين والأساتذة، إلى الترقيات، ومهمات أخرى كثيرة لا أكاد أتذكرها الآن، على أن أهم ما لفت نظرى هو مسئولية الشيخ عن مجلة الأزهر، التى كان يرأس تحريرها محمد فريد وجدى الذى كان من أساتذة الكتاب الإسلاميين، لعله من أصل شامى ويمت بصلة ما إلى الشيخ رشيد رضا الذى كان تلميذا للشيخ محمد عبده ويعتبر جناحه المحافظ الذى خرج من تحت عباءته . وكان الرجل قد قارب التسعين ولكن إدارة الأزهر لم تلغ عقده إجلالا له وكل ما فعلته أنها أسندت إدارة المجلة إلى الشيخ أبى العيون لسمعته الثقافية فيما يبدو».

«وكانت مجلة الأزهر أكاديمية على مستوى العالم كله وكان النشر فيها مماثلا للنشر فى المجلات العلمية من حيث القيمة العلمية . وكانت تطبع جزءا منها باللغة الإنجليزية فى الصفحات الأخيرة . وبالطبع راحت مواد المجلة تأتينى لأعرضها على الشيخ لإجازتها للنشر . وكان للمجلة سكرتير للتحرير غير أزهرى متخرج فى كلية الآداب قسم الفلسفة، وله إلمام جيد بالفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية بشكل عام، وبسرعة أصبحنا صديقين».

. . . . . .

ربما نتوقف هنا لنعجب من أن يهمل الأستاذ أحمد عباس صالح اسم هذا الرجل على هذا النحو، وربما أنه نسيه، وربما أنه لا يريد ذكر اسمه .

. . . . . .

«فى هذا الوقت كان الأزهر حافلا بالمثقفين الممتازين والمفكرين من طراز عال، بعضهم نشأ فى رحاب الأزهر، والبعض جاء إلى الأزهر من جامعات أخرى مدرسا للفلسفة أو اللغات أو التاريخ . وهناك تعرفت بأساتذة كبار مثل الدكتور محمد يوسف موسى والشيخ محمود شلتوت والدكتور عبد الله دراز، وهو غير وكيل الجامع الأزهر حينذاك الشيخ عبد اللطيف دراز ودارسين طوال النفس، مثل الشيخ محمود الشرقاوى الذى قام بدراسة ممتازة عن سيرة حياة الشيخ الجبرتى المؤرخ الشهير والذى دعوته بعد ذلك بأكثر من خمسة عشر عاما ليكتب فى مجلة «الكاتب».

(٢٩)

ثم ينتقل أحمد عباس صالح إلى ذكرياته عن أهم مقال كتبه فى حياته، وهو المقال الذى نال إعجاب الشيخ أبى العيون، حتى إنه تطوع بأن أسنده إلى نفسه كى يعطيه القوة المطلوبة، وهو أيضا المقال الذى كان نواة فيما بعد لأشهر كتب أحمد عباس صالح وهو كتابه «اليمين واليسار فى الإسلام»، ولست أنكر أن القارئ لمذكرات أحمد عباس صالح يكاد يحس أن فضل الشيخ أبى العيون فى هذا المقال يفوق فضل أحمد عباس صالح نفسه الذى كان من الممكن له أن ينتهى من علاقته بالمقال كأى مقال آخر دون أن يعنى به أو يعى قيمته! :

«. . . وبدأت أكتب للمجلة إلى جانب سكرتير التحرير الذى كان كاتبا جيدا بعد أن أقرأ الموضوع على الشيخ أبى العيون بطبيعة الحال».

«وفى إحدى المرات كتبت مقالا طويلا عن الاشتراكية والإسلام، وربما كان هذا أول محاولة لفكرة اليمين واليسار فى الإسلام، التى ظهرت بعد ذلك فى مجلة «الكاتب» بأكثر من خمس عشرة سنة . وكنت أقرأ المقالة على الشيخ قبل أن أدفعها للمطبعة، وكان يصغى بانتباه ثم بدأ يبدى إعجابه وموافقته ثم تحمس جدا وراح يردد : هذا صحيح . . هذا صحيح . وما إن فرغت حتى هب واقفا وقال : ضع اسمى عليها، يقصد المقالة».

«كنت سعيدا لحماسه وأربكنى هذا الحماس حتى لم أفهم ما الذى يقصده بقوله : ضع اسمى عليها . على أننى بعد أن عدت لمكتبى والتقطت أنفاسى ورحت أتأمل الموقف وجدت أنه نظر إلى الموضوع نظرة أخرى تماما».

«كان هو العالم الأزهرى المرموق والمرجع الدينى بغير شك، وكان التفسير الاشتراكى للإسلام بالصورة التى وضعتها ليس أمرا مسلما به فى الأوساط الدينية، وكان يريد أن يهب المقالة اعتماده وموافقته الصريحة . وهذا هو معنى «ضع اسمى عليها» وكان يفعل ذلك وكأنه يتحدى المعترضين الذين سوف يعترضون . ويقرر أن هذا الرأى المستخلص من هذه المقالة هو رأى معتمد رسميا من الشيخ أبى العيون،

وليس السكرتير العام للأزهر فقط بل العالم الشهير المسلم المؤتمن على الإسلام. وهكذا نشرت المقالة باسم الشيخ بالفعل . ومن الناحية الواقعية صارت جزءا من الاجتهادات المقررة فى الثقافة الإسلامية» .

(٣٠)

ويجيد أحمد عباس صالح تصوير ملامح حياة هذا الشيخ العظيم فى الوظيفة فى صباح كل يوم من أيام العمل :

« . . . وقد ظللت أعمل مع الشيخ أبى العيون وأتأمل دون أن أقصد كيف يتصرف الرجل الذى كان قد جاوز السبعين من عمره حينذاك . كان يسكن فى مصر الجديدة ويأتى كل يوم فى المترو ثم يأخذ تاكسى إلى مقر الإدارة . كان رجلا نظيفا يرتدى الجبة والكاكولا ، وعندما يصل إلى غرفته يخلع حذاءه ويتربع على كنبة فى مكتبه ويخلع عمته ليكشف عن شعر مقصوص نمرة واحد ويشرع فى قراءة جزء من القرآن ، وعندما ينتهى يطلب من الفراش أن يستدعينى ، ولعله كان يشرب عندئذ فنجانا من الشاى ، وحين أدخل أجد مكانا نظيفا ذا رائحة طيبة فيحادثنى عما لدينا من عمل فى هذا اليوم» .

«وكنت قد أخذت رأيه فى نوع الدراسة التى أتوجه إليها فى الجامعة ، قال لى بشكل حازم : ادخل الحقوق» .

(٣١)

ونأتى إلى حديث أحمد عباس صالح عن الأستاذ عباس محمود العقاد ، الذى كان بمثابة صاحب ثانى أكبر تأثير فى تكوينه الفكرى والإنسانى بعد الشيخ محمود أبو العيون ، ونقتطف من حديثه عن لقائه الأول به هذه الفقرة التى تصور العقاد من وجهة نظره :

« . . . كنت أتكلم معه بحرية تامة ، وكنت أواجهه بالاتهامات التى كان اليسار يهاجمه بها ، وكنت على طبيعتى تماما لا أتكلف أو أحذر من شىء حتى تلك التهم الجارحة أحيانا ، والغريب أنه كان يحتملنى . وعندما انتهت جلستنا كنا قد أمضينا

حوالى ثلاث ساعات نتكلم وكنت قد رأيت رجلا جديدا، واسع المعرفة ملما بأدق تفاصيل الدراسات الفلسفية ونظرياتها سواء فى اليمين أو فى اليسار، وكان مفكرا عقلانيا ويعلم الكثير عن التاريخ الإسلامى والأفكار الأساسية فيه».

(٣٢)

ويصل أحمد عباس صالح فى تلخيصه لعلاقته بالأستاذ العقاد فى السنوات العشر الأخيرة من حياته إلى قوله:

«... ومنذ سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٤ أى حوالى عشر سنوات، كانت علاقتى بالعقاد شبه مستمرة، وكانت له عادة أن يمر على مكتبة الأنجلو بشارع عماد الدين مرة أو مرتين - لا أذكر - كل أسبوع. وكان صاحب المكتبة يعامل العقاد كما لو كان مريدا له، وكان العقاد يعطى بعض مواعيده فى المكتبة. كنت دائم السؤال عنه بالطبع، ولكنه كان أحيانا عندما يغادر بيته فى مصر الجديدة إلى المكتبة فى عماد الدين يتصل بى تليفونيًا ويبلغنى بأنه ذاهب إلى المكتبة ويدعونى إلى مقابلته - إن كان لدى وقت - وكان دائما لدى وقت لمقابلة العقاد».

(٣٣)

وعلى المستوى العائلى يتحدث أحمد عباس صالح عن حبه لزوجته حديثا صادقا موحيا باعثا على تقديرها وتقديره أيضا فيقول:

«... الآن هاهى ذى مسجاة على الفراش تعانى من مرض عضال وهأنذا إلى جانبها أفعل المستحيل من أجل إنقاذها. كنت دائما أجلها واحترمها إلى جانب حبى الطاغى لها، ولكنها كانت دائما تريد أن تسمع منى كلمات الحب والاحترام والإجلال، وفى يوم من أيام صحوها التفتت إلى وأمسكت يدى بحنان شديد وقالت بعينين مغرورقتين: لم أكن أعلم أنك تحبنى إلى هذه الدرجة».

«عندما تزوجنا كان هذا شيئا خارقا، إذ أننى فى الواقع لم أكن مخططا للزواج بسبب مسئولياتى العائلية، ولكنى كنت أكتشف كل يوم أنها ليست مجرد امرأة جميلة أو حتى صديقة وفية بل قوة وسند لى وكان من المستحيل أن أكمل مشوار حياتى بدونها

. بالطبع طالت خطبتنا لكنها أفادتنا كثيرا لاكتشاف أنفسنا وأننا نكمل بعضنا تماما، وبعد أن فقدتها استمعت بالصدفة إلى أغنية قد تبدو ساذجة تغنيها وردة الجزائرية تقول : روحى وروحك حبايب من قبل دا العالم والله . لقد اغرورقت عيناى بالدموع، وشعرت بعمق أن هذا قد يكون صحيحا بالنسبة لى ولها، وأنه من الممكن فى عالم الميتافيزيقا الغريب وهذا الكون الذى لا نفهمه شيء أقوى من تلك الحياة البيولوجية ترتبط فيه الروح حتى ذروة السعادة، وإلا فما هذا الشعور الغريب الذى ربطنا حتى الاندماج الكامل وفنائنا كل منا فى الآخر ؟».

«أتذكر أيامنا الجميلة ولا أستطيع أن أحكم بالضبط أينا كان أكثر سعادة من الآخر، ولعلى اكتشفت وعلى الرغم من كل العلاقات العظيمة كالأمومة والأبوة والأخوة أن العلاقة بين زوجين محبين أقوى من أية علاقة أخرى . كان الحب يجددنا كل يوم، كنت أنزل إلى الشارع متجها إلى عملى مشرق الوجه منشرح الصدر واثقا من الحياة، وعندما أعود إلى البيت كنت أشعر أننى أعود إلى جنتى. وعلى الفور راح أولادنا يجيئون وكانت لا تضع وليدها إلا إذا كنت واقفا بالباب، ومع ذلك مررنا مثل أى زوجين بالخلافات وكانت حادة أحيانا والحق أنها لم تكن السبب فيها بل أنا إذ كانت شديدة الغيرة، على أننى ومهما تكن الهفوات كنت أعتبرها دائما مركز حياتى».

«عندما تسلمنا الجثمان أزحنا الغطاء عن وجهها وقفت مشدوها . كان وجها باسما بل ضاحكا يكشف عن أسنانها البيضاء مرتاحا وكان بالغ الجمال ولعلى تذكرت حالتى عند الأزمة القلبية التى داهمتنى وأنا فى ليبيا، عندما بدأ الوجع القاتل يذهب عنى وأشعر براحة شديدة تصل إلى درجة السعادة وأنا أدخل فى الغيبوبة . هل هذا هو ما حدث لها ؟ أرجو ذلك».

(٣٤)

ونأتى إلى انطباعات أحمد عباس صالح عن فترات الغربة، وربما كان من المهم أن نبدأ بتلخيص موقفه الناقد للنظام العراقى فى عهد صدام حسين، وهو على سبيل المثال يلخص التعبير عن الإحباط الذى أصابه وأصاب أنداده عندما اكتشفوا حقيقة نظام صدام حسين والطريق الذى يسير إليه هذا النظام قائلا :

« . . . كانت هذه الأحداث الكابوسية قد أنهت كل الآمال لدينا وأذكر أننى كنت أجلس مع صديقى محمد أنيس نستعرض أحوالنا بحزن وانكسار، وإذا به يقول لى واقفا وكأنه يريد أن ينصرف : كيف قضى علينا أن نعيش تجربتين فاشلتين؟» . .

(٣٥)

وبالإضافة إلى هذا فإن أحمد عباس صالح يلخص موقفه ورأيه من حرب العراق على الكويت فى مواضع متعددة، وبخاصة فى الفصل الحادى والأربعين حيث يقول :

« . . . وكان العراق قد أعلن الحرب على الكويت وكنت أرى أن هذه الحرب المقصود بها الهرب من الاستجابة لطلبات الشعب العراقى من أجل الديمقراطية والتى وعدت بها السلطة العراقية بعد انتهاء الحرب مع إيران» .

(٣٦)

وربما أن حديثه عن العراق لا يخرج عن هذا الإطار الذى يتحدث به شخص عرف طابع الإنسانية والليبرالية وحقوق الإنسان، وهو ما يتجلى بوضوح فى طريقة حديثه عن أكثر من موقف قدر له أن يشهده، أو أن يلم بأطرافه فى أثناء إقامته فى ذلك الوطن العربى، وهو على سبيل المثال يروى ذكرياته اللاحقة عن قصة إعدام مجموعة من خيار المثقفين العراقيين :

« . . . عندما عدت من إجازتى الصيفية التى كنت أقضيها خارج العراق، وكانت حادثة الاعتقال والإعدام قد عرفت وأنا فى الخارج، وجدت دعوة من وزارة الإعلام العراقية لأشهد المحاكمة التى أجراها صدام حسين، حتى أصدق أن أصدقائى هؤلاء كانوا يستحقون الإعدام بالفعل، بسبب خيانتهم الظاهرة . وبالفعل ذهبت إلى مقر اتحاد الصحفيين، أو مكان آخر تابع لوزارة الإعلام . أداروا لى شريط المحاكمة أمام التليفزيون . فإذا بى أجد اجتماعا كبيرا لحزب البعث فى إحدى القاعات الكبرى امتلأت مقاعدها بأعضاء الحزب، بينما جلس صدام حسين وراء منصة، وإلى جانبه رجل راح يروى واقفا كيف وقعت الخيانة، وأنها كانت بتدبير من سوريا . كان هذا الرجل رئيس ديوان صدام حسين . وكان قد اعتقل بتهمة الاشتراك فى الانقلاب ضد

صدام . وشرح كيف اشترت سوريا ببضعة دولارات ولاء هؤلاء السياسيين العراقيين . وكان مما ذكره الرجل أن سوريا رشت غانم عبد الجليل بمبلغ خمسين ألف دولار، وكان هذا مبلغا تافها، لا يعقل أن غانم عبد الجليل يكون قد قبله كرشوة للانقلاب ضد صديقه صدام حسين . والواقع أن الذى ضم الرجل إلى حزب البعث، كان هو غانم عبد الجليل نفسه . وكان صدام يغدق على معاونيه مبالغ مثيرة للدهشة وكثيرا ما كان يحدثنى غانم عن هذه المنح فى الأحاديث العابرة كدليل على رعاية الدولة لكبار مسئوليها ربما لإبعادهم عن أى إغراء . أستطيع القول، بسبب معرفتى الجيدة ـ فيما أعتقد ـ بغانم عبد الجليل، أن هذا اتهام مضحك ومثير للسخرية لرجل بلغ أعلى المناصب فى الدولة».

«وكان ذلك الشاهد الذى يتلو شهادته أمام جمهور الحزب، بجانب صدام حسين الجالس، عندما يذكر اسما من الأسماء، ويبدأ الشهادة ضده، يشير صدام حسين إلى أشخاص يحيطون بالجالسين أن يقبضوا عليه، فينقض هؤلاء "الزبانية" عليه ويسحبونه سحبا أمام زملائه، وهو يعلم أنه مُنقاد إلى الموت . بالفعل عرفت معنى كلمة الزبانية من هذا المنظر البشع لقوم لا ملمح لأية شفقة أو إنسانية فى عيونهم أو أجسامهم أو حركاتهم المليئة بالوحشية . وقد اختير هؤلاء بعناية فهم قوم غلاظ الأجسام والملامح يمثلون بمجرد شكلهم أسوأ ما فى الإنسان من غرائز وانحطاط».

«رأيتهم يسحبون الضحية سحبا كالخراف المساقة إلى الذبح ورأيت كيف يكون حال الرجل وهو يساق بهذه الطريقة إلى ذلك المصير الرهيب».

«تضطرب القاعة لحظة ثم يتابع الشاهد شهادته الغريبة ليأتى اسم آخر . ولك أن تتصور حال الجالسين فى القاعة وكل واحد منهم ينتظر أن يسمع اسمه ليساق إلى هذه المذبحة . والغريب أن صدام حسين كان يصغى للشهادة وعندما يبدأ الشاهد الحديث عن اسم المتهم تتسع عينا صدام حسين ثم إذا بهما تغرورقان بالدموع . فيخرج منديلا من جيبه فيجفف دموعه أمام أنصاره الذين لابد أن دموعهم قد جرت هى الأخرى تعبيرا عن هذا الإحساس الأليم بخيانة الأصدقاء وأقرب المقربين».

«هذا المشهد الغريب، رجل واحد يتحدث عن آخرين بأنهم تواطئوا مع النظام السورى من أجل الانقلاب على النظام العراقى وخانوا الأمانة وتكفى هذه الشهادة ودون أية مناقشة ودفاع كى يساق المتهم إلى الإعدام فورا».

«كنت أتأمل ذلك الشاهد الغريب الذى كان فى شهادته اعتراف بالمؤامرة . كيف أقنعوه بأن يقف هذه الوقفة ويلقى بهذه الاعترافات المختلقة فى اعتقادى وهو يعلم بأن الموت يتربص بهم جميعا . كيف كان حجم العذاب الذى تعرض له ؟ وكيف أصبح فريسة هينة فى أيدى الخوف والرعب ؟ حتى أنه لم يعد يدرى أنه هو نفسه سوف يعدم . انتظرت أن يحدث جدل أو استجواب أو شهادة أخرى أو دفاع أو أى شكل من أشكال المحاكمة فلم أجد وانتهت هذه الشهادة التى استغرقت أكثر من ساعة . وكان هذا هو كل شىء وتلك كانت إجراءات المحاكمة التى أعدم فيها أكثر من ٣٠ شخصًا من أحسن كوادر حزب البعث العراقى ومن أحسن الشباب العرب الذين صادفتهم فى مختلف البلاد العربية» .

«وبالطبع ، أعدم هذا الشاهد فيمن أعدموا» .

(٣٧)

ويصل أحمد عباس صالح إلى ذروة مشاعره تجاه نظام صدام حسين فى نهاية الفصل الأربعين حيث يقول :

«جاءنى خطاب من إدارة ثقافية تابعة لوزارة الإعلام بأن أسهم بتأليف كتاب عن عبقرية الرئيس صدام كمفكر من خلال كتاباته حول القومية العربية . بالطبع أدركت أن هذا هو الثمن الذى علىّ أن أدفعه . وفى ذلك المناخ الجنونى من القلق كتبت موافقا ، وجاءنى خطاب بتحديد مواعيد الانتهاء من تأليف الكتاب . ولكن عندما جلست أخطط لتأليف هذا الكتاب وجدتنى عاجزا تماما عن أن أكتب حرفا واحدا ، ولعلى احتقرت نفسى تماما» .

(٣٨)

أما حديث أحمد عباس صالح عن الحياة فى لندن فى مواضع عديدة من مذكراته فإنه فى المقابل ينطق بوضوح بالتقدير الحقيقى للحضارة الغربية والإدارة البريطانية :

« . . . للحياة فى بريطانيا وفى مدينة مثل لندن جاذبية خاصة . كان لمن يعمل فى الإذاعة على سبيل المثال مرتب مضمون ليس بالكثير وليس بالقليل . وكان يستطيع أن

يمتلك بيتا صغيرا يدفع له أقساطًا قليلة . وكان ينعم بالعلاج المجانى فى نظام طبى متقدم يأتيه الناس للعلاج من كل فجاج الأرض ، فضلا عن تعليم حكومى بالمجان حتى انتهاء المرحلة الثانوية إلى جانب إعانة للبطالة لو حدث أن تعطل عن العمل ، كما كان التعيين فى الوظائف لا يحتاج إلى أية وساطة ، وكانت بريطانيا ، والعاصمة لندن بصفة خاصة ، مكانا عريقا فى التعامل مع كل الجنسيات دون حرج كبير» .

(٣٩)

كذلك يتحدث أحمد عباس صالح أيضا عن الحياة فى الولايات المتحدة بقدر مواز من الإعجاب ، ويبدأ هذا الإعجاب من مستوى عال من التقدير عندما يروى فى سعادة الشعور الذى انتابه حين اكتشف سهولة الحصول على الفيزا الأمريكية على الرغم من تخوفه من أن يكون لموقعه السابق من المخابرات الأمريكية وكشفه تمويلها لمجلة «حوار» :

«فى البدء ظننت أن السفارة الأمريكية فى بغداد لن تعطينى الفيزا بسهولة ، وكان يزاملنا فى أكاديمية الفنون أستاذ عراقى قضى حوالى عشرة أعوام فى الولايات المتحدة وربما كان حاصلا على الجنسية الأمريكية فأخذته معى إلى السفارة ليضمننى أو ليوصى بى . شرحنا الأمر لموظف بالسفارة وبعد أن استمع إلينا ذهب ليقابل القنصل الذى لم يلبث أن خرج لنا وحيانى بترحاب أثار دهشتى ، ودعانى إلى الدخول إلى مكتبه دون أن يدعو زميلى معى . عرف منى القصة وأنى أريد زيارة أخوى اللذين يعملان فى ولاية كاليفورنيا . وأثناء الحديث جاءت القهوة ثم أصدر القنصل أوامره ولم أكد أنهى القهوة ونحن نتحدث حديثا هينا لينا فى مادة المسرح التى كنت أقوم بتدريسها فى الأكاديمية العراقية حتى جاء جوازى مختوما وفيه فيزا لزيارة الولايات المتحدة لمدة خمسة أعوام ودون رسوم . صافحت الرجل بحرارة وشكرته وأنا مندهش لهذه المعاملة الطيبة التى لم أتوقعها» .

«خرجت لأجد زميلى جالسا ينتظرنى . أوصلنى القنصل إلى الباب وودعنى ومعى زميلى دون أن يقول له كلمة واحدة . لعلى عبرت عن دهشتى لزميلى لهذه المعاملة الطيبة وكنت أظن أنى غير مرغوب فىّ فى الولايات المتحدة وأنا الذى كنت أكتب

بحرارة ضد سياسات أمريكا . وكانت مجلة «الكاتب» حريصة على أن تفضح السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط».

(٤٠)

ويستطرد أحمد عباس صالح من هذا الحديث إلى رواية قصة الدور الذى لعبه زملاؤه الثلاثة عبد الجليل حسن، ونبيل زكى، وجلال السيد فى كشف علاقة مجلة «حوار» بالمخابرات الأمريكية، وفى هذا المقام فإنه يحرص على نفى صحة ما ردده لويس عوض مستندا إلى النيويورك تايمز من أن المخابرات المصرية هى التى كشفت هذه العلاقة:

«وكنا نحن الذين فضحنا المؤسسة الثقافية الأمريكية التى كانت تصدر عددا من المجلات الفكرية والثقافية فى عدة بلاد منها لبنان، التى كانت تصدر مجلة "حوار"، ومنها بريطانيا، التى كانت تصدر فيها مجلة "انكاونتر"، التى كان يرأس تحريرها الشاعر البريطانى الشهير ستيفن اسبندر، والذى كان يحسب على اليسار البريطانى . وأثبتنا أن هذه المجلات تمول من جهاز للمخابرات الأمريكية الـ (سى آى إيه) . كان من إنجازات مجلة "الكاتب" الكبرى، هذه الفضيحة والتى كشفها المنطق البسيط، إذ تولى زملائى فى "الكاتب" المرحوم عبد الجليل حسن والمرحوم جلال السيد ونبيل زكى فحص هذه المجلات ومصادر تمويلها حتى توصلوا إلى تبعيتها الكاملة لـ "سى آى إيه"، وأحدثت التحقيقات التى قمنا بها هزة كبرى فى عالم الثقافة، إذ نقلت صحف العالم نتائج هذا التحقيق على نطاق واسع واضطر رؤساء التحرير فى أكثر من بلد حيث تصدر مطبوعات هذه المؤسسة المريبة إلى الاستقالة واستقال ستيفن سبندر من رئاسة التحرير، معلنا أنه لم يكن يعلم بأن التمويل يأتى من هذه المؤسسة الاستخباراتية، وأرسل إلينا خطابا يوضح فيه ذلك ويعتذر . وكذلك أغلقت مجلة "حوار" وغيرها من المجلات الأخرى . ثم قرأ لويس عوض صفحة كاملة فى جريدة النيويورك تايمز فترجمها فى نفس المساحة فى جريدة الأهرام، حيث نسبت الجريدة الأمريكية معلوماتنا هذه إلى المخابرات المصرية التى زودتنا بها، ولكن الحقيقة – وها قد مضى على هذه الحادثة أكثر من أربعين عاما – أن الزملاء الثلاثة كانت لديهم القدرة

على البحث والاستقصاء والاستنتاج الصحيح، ولم يكن لأى منا أية صلة بهذه الأجهزة المصرية المنسوب إليها هذه المعلومات . وأذكر أن هذه التحقيقات نشرت تباعا فى أكثر من عدد من أعداد مجلة «الكاتب» .

(٤١)

ويستطرد أحمد عباس صالح مرة ثانية ليروى بالتفصيل قصة جائزة مجلة «حوار» التى خصصتها لأعظم كاتب قصة عربى، وكيف اعتذر نجيب محفوظ من قبولها بينما تشبث بها يوسف إدريس، وكيف اختلف هو نفسه مع صديقه يوسف إدريس فى هذا الموقف، مما جعله يتبنى التوجه الذى رفع به اسم يوسف إدريس من مجلس تحرير مجلة «حوار»، وكيف أن يوسف إدريس عاد واعتذر عن قبول الجائزة، وكيف أن كمال رفعت هو الذى روى القصة للرئيس جمال عبد الناصر لتبدأ بعد هذا تفصيلات القصة المشهورة عن اعتذار يوسف إدريس عن الجائزة، وقرار الرئيس عبد الناصر بتعويضه عنها على النحو المزعج الذى ذكره .

(٤٢)

لكن أحمد عباس صالح ينفرد بعد هذا كله برواية موقف يوسف إدريس «المضطرب» بين الخجل والمهانة حين دعى إلى مكتب سامى شرف ليناوله ظرف بقيمة الجائزة، مما جعله يفكر فى الاعتذار عن قبول هذا المبلغ :

« . . . قبيل هذا الكشف الذى قمنا به، رصدت مجلة حوار جائزة لأعظم كاتب قصة عربى، واختارت لجنة من كبار الأدباء المصريين والعرب، أذكر منهم لويس عوض ومحمد مندور، وقد رشحا فى ذلك الوقت نجيب محفوظ لنيل هذه الجائزة . وكان المبلغ المرصود للجائزة هو ألفان وخمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت قادر على أن يشترى سيارة محترمة على الزيرو . ولما رفض نجيب محفوظ هذه الجائزة بسبب ما كان يثار حولها من شكوك، عادت اللجنة فرشحت يوسف إدريس، الذى كان عضوا فى مجلس تحرير مجلة «الكاتب» . وقبل أن يحدثنى يوسف إدريس عن هذا الترشيح للجائزة أخبرنى نجيب محفوظ فى مناسبة عابرة أنهم اتصلوا به وعرضوا عليه الجائزة فرفضها . قلت هذا ليوسف إدريس الذى كان قد أعطى موافقته وربما كان

الذى اتصل به واحدا من الأستاذين المصريين لويس عوض أو مندور وأعقبه المسئول عن المجلة والجائزة، وتجادلنا طويلا . كان يوسف إدريس مرحبا بالجائزة فإلى هذا الوقت لم تكن الدولة المصرية قد منحته أى جائزة . وكان اشتراك هذين الناقدين الكبيرين فى لجنة الجائزة يعنى اعترافا ذا قيمة أدبية كبيرة بأدب يوسف إدريس بالإضافة إلى الأعضاء العرب الآخرين الذين كانت لهم أيضا سمعة أدبية جيدة . بالطبع كانت القيمة المالية لا يستهان بها . لم تكن مبلغا كبيرا جدا لكنها لم تكن شيئا هينا».

«جادلنى يوسف إدريس بقوة وأصررت على أن يعتذر عن الجائزة . وكنت أفعل ذلك وأنا مدرك لكل أبعاد الموضوع بالنسبة له . وكان من الواضح أن المسألة متعلقة بالمبادئ الأساسية التى كنا ندافع عنها . ولعلى لم أستطع إقناع يوسف بالاعتذار، فدعوت مجلس التحرير وعرضت عليه الموقف فقرر رفع اسم يوسف إدريس من مجلس التحرير . لست أذكر ما إذا كان يوسف قد حضر هذه الجلسة، أم أننى الذى بلغته بالقرار آسفا . على أنه فى نفس اليوم عاد فاتصل بى وقال لى أنه اعتذر عن قبول الجائزة أرسل للجنة الجائزة برقية بالاعتذار وأطلعنى على صورتها . اجتمعنا مرة أخرى وقررنا إلغاء قرارنا السابق وعادت الأمور كما كانت . وكان كمال رفعت عضوا فى مجلس التحرير وكان هو صلتنا المباشرة بالرئيس جمال عبد الناصر فضلا عن أنه كان من كتاب المجلة ومن الطبيعى أن يروى رفعت القصة لعبد الناصر الذى ما إن استمع إليها حتى أمر سكرتيره سامى شرف بأن يدعو يوسف إدريس ويعطيه قيمة الجائزة».

«بعد أيام قليلة تلقى يوسف إدريس مكالمة تليفونية من سكرتير عبد الناصر لمقابلته فى الرئاسة . وبالفعل ذهب إلى هناك فاستقبله سامى شرف وقدم له فنجانا من القهوة ثم فتح بعد قليل درج مكتبه وأخرج له ظرفا مغلقا وأعطاه له وتساءل يوسف عن محتوى هذا الظرف فقال له السكرتير بكل بساطة : إنه مبلغ الجائزة التى رفضتها وقد أمر الرئيس بأن نعطيه لك».

«روى لى يوسف إدريس عن مشاعره وعن الخجل الذى اعتراه والمهانة التى أحس بها وقرر رفض المبلغ ولكن السكرتير استهول هذا الرفض، إذ كيف يرفض إنسان هبة تأتيه من الرئيس . ولعله ألح إلحاحا شديدا على يوسف وفى شىء يشبه التهديد حسب روايته لى فأخذ المبلغ وهو يكاد يتعثر فى خطاه».

(٤٣)

وربما أن الأوان قد جاء لتتأمل فى تطور علاقة أحمد عباس صالح بثورة يوليو، ورأيه فى سياساتها ومسارها، ونحن نرى أحمد عباس صالح يصل فى الفصل التاسع من مذكراته إلى أن يبدى رأيا مبكرا فى ثورة ١٩٥٢، وهو رأى يميل إلى القول القائل بأن حركة الجيش هذه أجهضت ثورة اشتراكية كانت على الأبواب:

«. . . كان لدينا استرابة فى هذا الانقلاب العسكرى - كنا نسميه كذلك فى هذا الوقت - فقد جاء بعد حريق القاهرة بشهور ستة فقط، وبعد اضطراب فى نظام الحكم إذ قامت عدة وزارات لم تكد تستمر فى الحكم إلا شهرا أو بعض شهر، وكنا نحس أن الحريق ثم الانقلاب قطعا المسيرة الشعبية التى بدأها حزب الوفد حين ألغى المعاهدة، وكانت الشروط التى نفذت من معاهدة سنة ١٩٣٦ فى سنة ١٩٤٨ قد «مصرت» مصر، وكان المصريون بالفعل يتسلمون سلطات عديدة، وكانت المقاومة الشعبية تزعج معسكرات الجيش البريطانى فى القناة. وكان الاتجاه الإصلاحى الاجتماعى يمضى قدما، إذ جاء طه حسين فجعل التعليم مجانيا حتى المرحلة الثانوية، كما جرت إصلاحات فى قوانين العمال، وكان من الواضح لكل القوى أن تغييرا ثوريا قادم فى اتجاه الاشتراكية الديمقراطية بشكل ما. فعلى الرغم من القوى المحافظة التى كانت فى حزب الوفد، إلا أن حركة الشباب الوفدى التقدمية كانت قوية إلى جانب نشاط القوى الاشتراكية الأخرى».

(٤٤)

ولا يكتفى أحمد عباس صالح بمثل هذا الحديث فى موضعه، لكنه فى نهاية الفصل الحادى عشر يعود فيؤكد هذا المعنى بطريقة أخرى فيقول:

«. . . الحق أن مصر بالفعل كانت حبلى بالثورة، وكان التغيير قد أصبح مطلبا أساسيا، عليه إجماع من غالبية القوى السياسية، وكان هذا حال ضباط الثورة أو الانقلاب. ويبدو أن الرجل الذى كان أكثرهم مرونة وطواعية لمقتضيات الواقع هو جمال عبد الناصر، الذى كان كثيرا ما يتحدث عن الديمقراطية ويهدد بالانسحاب من التنظيم عندما يطالب زملاؤه بالحكم السلطوى "لدواع أمنية أو ثورية"، ولكنه كان

أكثرهم اعتمادا لمبدأ القوة . هكذا تم إعدام عمال كفر الدوار الذين أضربوا عن العمل فى بداية الثورة لإرهاب الآخرين، وكان هو الذى يأمر باعتقال الشيوعيين والوفديين قبل أن تسوء علاقته بالإخوان . وفى مذكرات عبد اللطيف البغدادى لم يستغرق الحديث عن إعدام عاملى المحلة وكفر الدوار إلا سطورا قليلة ودون أى إحساس بالقلق» .

(٤٥)

وعلى مدى فصول المذكرات يمضى أحمد عباس صالح فى إثبات صحة رؤيته هذه من خلال ما تنامى إليه من معلومات وقرارات، وهو على سبيل المثال يروى فى الفصل الحادى عشر ما حدث به أستاذ طب بارز لم يشتهر بالعمل بالسياسة فيما بعد ذلك، وهو الدكتور حليم دوس، حين تناقش هو ويوسف إدريس معه عن علاقة ضباط الثورة بالأمريكيين فأخرج لهم الرجل من جيبه كتابه «لعبة الأمم» فى طبعته الإنجليزية قبل أن تحذف بعض صفحاتها فى الترجمة العربية :

«. . . كنت ألتقى مع صديقى يوسف إدريس وأصدقاء آخرين فى كافيتريا فندق سميراميس القديم الذى كانت له شرفة واسعة مطلة على النيل . وفى ذلك اليوم كنا وحدنا، أنا ويوسف إدريس ولم يلبث أن انضم إلينا الدكتور حليم دوس، الذى كان شقيقا لصديقتنا ليلى دوس، الأستاذة فى الجامعة الأمريكية آنذاك، وكان هو الطبيب الخاص للسفارة الأمريكية . وكنا نعرف العلاقة بين الثورة والسفير الأمريكى كافرى. وكانت الصحف الأجنبية تسمى ضباط الثورة بأولاد كافرى، لكننا لم نكن نعرف طبيعة هذه العلاقة» .

«كان المعارضون وخاصة من المضارين من قانون الإصلاح الزراعى والأحزاب القديمة بشكل عام يتهمونهم بأنهم أتباع لأمريكا . وكان اليساريون يتهمونهم بأنهم أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين، ولم يستبعدوا بالتالى علاقتهم بالولايات المتحدة. وكان الحديث الذى دار بيننا وبين حليم دوس عن هذه التبعية الأمريكية بالطبع . لم نكن متأكدين وكنا نجادل الطبيب المصرى ولكنه أخرج من جيبه كتابا صغيرا باللغة الإنجليزية هو كتاب «لعبة الأمم» الذى أصبح شهيرا بعد ذلك، وكان من تأليف "مايلز

كوبلاند" ، الذى كان ملحقا بالسفارة الأمريكية فى القاهرة ممثلا للمخابرات، وفيه شرح للصلة بين بعض رجال الثورة والسفارة التى بدأت من سنوات قليلة قبل الثورة. وزعم هذا الكاتب أن تدبير الثورة كان بالاتفاق ومساعدة الولايات المتحدة».

«ومع أن هذا الكتاب ترجم بعد ذلك بسنوات إلى اللغة العربية إلا أن الصفحات الخمس التى أطلعنا عليها الدكتور حليم دوس لم تكن موجودة فى الترجمة».

(٤٦)

ويتحدث أحمد عباس صالح بشىء من «الفضفضة الممتزجة ببعض التشويش» عن لقاءاته المبكرة مع أنور السادات ورجال الثورة، والدور الذى قدر له أن يؤديه فى مجلة «التحرير» ضمن مجموعة يسارية خلفت مجموعة يسارية أخرى:

«. . . وكنت فى الإذاعة عندما جاءنى سامى داود الذى كان كبيرا للمذيعين وكاتبا معروفا، وقال لى : تعال معى، إن السادات يريدنا».

«فهمت فى الطريق أن السادات أصبح مسئولا عن مجلة «التحرير» بعد أن تخلت عنها المجموعة اليسارية، وأنه يريد أن يحافظ على هذا الاتجاه، ولذلك أرادنا أن نحل محلهم وقد اختارنا لذلك . وكان السادات ينتظرنا فى مبنى دار الهلال الذى كانت المجلة تصدر منه . وهناك وجدناه فشرح لنا مهمتنا وعرفنا أنه أصبح رئيس التحرير، وأن سامى داود سيكون مدير التحرير، وأننى سأكون سكرتير التحرير».

(٤٧)

وينفرد أحمد عباس صالح برواية تفصيلات احتفال الثورة بالزعيم محمد فريد، ودوره هو نفسه فى تنظيم هذا الاحتفال الصحفى، وفى أثناء هذا ينفرد أيضا بحديث منصف عن الدكتور خليل مدكور الذى قدر له أيضا أن يعرفه، وقدر له أن يهيئ لاحتفال الثورة أن تفيد من تاريخه مع الزعيم محمد فريد:

«. . . وأظن أن أنور السادات هو الذى اقترح على رجال الثورة أن يحتفلوا بذكرى وفاته (الضمير يعود على الزعيم محمد فريد) إذ تقرر بالفعل أن يقام «صوان» كبير لهذا الاحتفال يحضره رجال السياسة المتعاطفون مع الثورة أو مع الحزب الوطنى».

«وانتهز أنور السادات الفرصة وقرر أن تصدر نسخة تجريبية من مشروع جريدة «الجمهورية» تحتوى على دراسة لتاريخ هذا الرجل على أن توزع أثناء الاحتفال كنموذج لما ستكون عليه «الجمهورية» عند صدورها بالفعل ووجدت السادات يطلب منى كتابة هذه الدراسة».

«فى أثناء عملى بلجنة نشر الثقافة الإسلامية فى الخارج كان يزاملنى فى اللجنة أستاذ للغة الفرنسية هو الدكتور خليل مدكور، وكنا نجلس معا، وكان رجلا فى عمر أبى له شمائل بالغة الندرة فهو متواضع إلى أقصى درجة، وطنى إلى درجة البذل بالحياة وكان من مريدى محمد فريد طوال أيام منفاه، كان يدرس هناك للحصول على الدكتوراه وتعلق بالزعيم حتى أصبح أقرب المقربين إليه وصار يقوم بكل أعماله حبا وتطوعا، وكنا نجلس طوال اليوم فيحدثنى عن الزعيم وعن المصريين المناضلين فى الخارج، وكان قد قضى حوالى تسع سنوات كاملة ما بين فرنسا وسويسرا فى صحبة محمد فريد منغمسا فى كل النشاطات السياسية، ومع أنه اتصل بكل الأفكار التى كانت سائدة فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها، إلا أن فكرته الأساسية ظلت تدور حول استقلال مصر، وحول الاستعمار البريطانى وخفايا سياساته بالنسبة لـ «مصر» وكم حاولت أن أتعرف على رأيه فى الماركسية وغيرها من التيارات السياسية التى كانت منتشرة فى أوروبا فى هذا الوقت، إلا أن هواه كان مصر واستقلالها لدرجة أنه مع انتباهه لهذه الأفكار وربما إعجابه بها لم يجد لها مكانا راسخا فى قلبه، وربما كان زعيمه محمد فريد أكثر تنبها منه».

«وكان الرجل (الضمير يعود على الدكتور خليل مدكور) ذا إيمان دينى راسخ وكان يؤدى الفروض ولكنه مع ذلك كان عصريا فى الكثير من مظاهر الحياة».

«أعتقد أننى قضيت وقتا طيبا مع الأستاذ خليل مدكور، وتعلمت منه أشياء كثيرة وكان من المستحيل مجاراته فى إنكار ذاته وتواضعه، وكذلك فى صدقه وزهده أو قناعته».

«ولذلك عندما كلفنى السادات بكتابة ملخص لسيرة حياة محمد فريد، اتجه ذهنى فورا إلى الدكتور خليل مدكور، فذهبت إليه وفاتحته فى الموضوع فأمدنى بصور

فوتوغرافية ورسائل متبادلة تغطى غالبية سنوات المنفى، وحين كانت توجد ثغرة كان يشير على أن أسترشد بأشخاص آخرين كانوا على اتصال به أثناء غيابه هو، وبالفعل اتصلت بهم واستكملت غالبية الثغرات وأصبح لدى أخيرا تصور جيد عن حياة هذا الرجل، مع أن الكثير من الوثائق المتصلة بتاريخه لم تكن قد نشرت بعد».

«بالطبع استعنت بكتاب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى عن حياة الزعيم، ولكن المعلومات التى حصلت عليها من بقايا الأحياء الذين صاحبوا محمد فريد كانت جديدة تماما وأذكر أنى كتبت الموضوع بشىء من العاطفة، رغم تنبهى لضرورة النظرة الحيادية ولعلى ركزت على مظاهر النزعة الاشتراكية باعتبارها اكتشافا ما فى حياة هذا الزعيم».

(٤٨)

ونصل إلى قصة أزمته «الحاكمة» مع عهد الثورة، وهى أزمة مبكرة صاغت مواقفه كلها فيما بعد، على نحو ما أشرنا فى مقدمة مدارستنا هذه، ودفعت بهذا الموقف إلى نهايته الطبيعية فى الاغتراب الأمن بعيدا عن مناخ غير مستقر على نحو ما نرى فى قصة حياته:

«. . . كان اهتمام الثورة بالإذاعة سابقا لكل اهتمام بسائر وسائل الإعلام، ومنها الصحف، وسرعان ما أنشئت إذاعة صوت العرب، التى كانت موجهة إلى البلاد العربية، وكانت صوتا جديدا بالنسبة للإذاعات، واستطاع أحمد سعيد، وهو إذاعى شاب موهوب، أن يجعلها صوتا مسموعا. حقا كان يشرف عليها رجل مخابرات كبير هو فتحى الديب، الذى كان ضابطا من الضباط الأحرار فى نفس الوقت، ولكن موهبة أحمد سعيد كانت السبب المباشر فى نجاح هذه الإذاعة».

«وكنت أعرف أحمد سعيد، ولعلى اشتركت فى كتابة التمثيليات بناء على طلبه. وأذكر أنه استدعانى ذات يوم، وطلب منى أن أكتب تمثيلية قوية ضد الاستعمار البريطانى بغرض تعبئة الجماهير العربية ضدهم».

«وبسبب عدم ثقتى، سألته عن مدى الحرية فى كتابة مثل هذه التمثيلية، فقرأ علىّ تعليقا إذاعيا له بالغ القوة. وبالفعل كان صديق لى هو عبد العزيز فهمى الذى، كان

مديرا للأخبار فى الإذاعة قد وضع كتابا بعنوان "الاستعمار عدو الشعوب" وكان قد أهدانى نسخة منه قبل وقت قليل . وكنت قد قرأته . وكانت فكرته الأساسية هى إثبات أن الظاهرة الاستعمارية ليست لاستغلال الشعوب المستعمرة فقط ، بل إنها تستغل حتى شعبها نفسه . وأن النهب الاستعمارى لا تستفيد منه إلا الطبقة الرأسمالية ، بينما يعانى الشعب من الاستغلال الداخلى . وضرب أمثلة على ذلك عمليات الإضراب العمالية التى كان يقوم بهـا العمال الإنجليز فى بلادهم» .

«وعندما عرضت فكرة اعتمادى على هذا الكتاب فى كتابة التمثيلية على أحمد سعيد وافق متحمسا . ويبدو أنه أثناء المفاوضات الجارية بين حكومة الثورة والحكومة البريطانية بشأن الجلاء عن مصر ، كان المصريون يفكرون فى حصار الإنجليز بحملة دعائية قوية فى كل أنحاء العالم العربى ، وهو الأمر الذى بلغ لأحمد سعيد ورأى أن يستعين بى» .

. . . . . .

. . . . . .

(٤٩)

وينتقل أحمد عباس صالح فى سرعة إلى الحديث عن الظروف أو الصدفة التى هيأت له أن يقدم فكرة هذا العمل بديلا عن عمل آخر كان قد اقترحه عليه الفنان السيد بدير الذى كان ، على حد وصفه ، يراهن الثورة على قدراته ، على حين لم يكن أحمد عباس صالح على استعداد لخيانة «الوفد» :

« . . . كان السيد بدير يريد أن يقول لقيادة الثورة أنه يفهم تماما ما يريدونه من الإذاعة ومن الفن ، وأنه قادر على تحقيقه . ولذلك استدعانى وطلب منى تمثيلية "قوية" عن حادثة ٤ فبراير . وقال لى أنه سيذيع هذه التمثيلية فى ٤ فبراير سنة ١٩٥٤ الذى يصادف يوم خميس ، والذى ستغنى فيه أم كلثوم لأول مرة فى عهد الثورة ، بعد رجوعها من رحلة غياب طويلة للعلاج من مشكلات "الجويتر" (تضخم الغدة الدرقية) ومضاعفاته ، وأن رجال الثورة سوف يحضرون جميعا هذا الاحتفال فى سينما ريفولى . واستطرد موضحا أن نشرة الأخبار تنتهى فى التاسعة والنصف لتدخل

التمثيلية مباشرة ليعقبها على الفور صوت أم كلثوم، الذى تجمعت له كل الأسر المصرية بجوار الراديو، وكأن مصر كلها سوف تستمع إلى هذه التمثيلية . لكننى لم أكن مقتنعا بخيانة حزب الوفد» .

«ولذلك اعتذرت للسيد بدير دون أن أشرح له الأسباب، إذ كنت أعتقد أن اعتذارى سيجرنى إلى جدل معه لا طائل من ورائه» .

«وكان طلب السيد بدير كتابة هذه التمثيلية قبل موعد الإذاعة بأسبوعين، وبالفعل كان من الصعب علىّ أن أنجزها فى هذا الوقت القصير، وأظن أن ذلك كان عذرى للسيد بدير، ولكنه لم يتملكه اليأس، وسألنى عما إذا كان لدى أى عمل إذاعى جاهز له طابع سياسى، فقلت له إننى كتبت تمثيلية سياسية ضد الاستعمار الإنجليزى لإذاعة صوت العرب وأنهم لم ينفذوها بعد، وأنها لدى أحمد سعيد، ويستطيع أن يطلبها منه» .

«ويبدو أن الرجل كان يعتقد أنه بعرضه تمثيلية سياسية فى هذا اليوم المشهود لأم كلثوم سوف يثّبت وضعه لدى رجال الثورة، الذين يظنون أنه مجرد فنان لا علاقة له بالسياسة . وبالفعل ذهب إلى أحمد سعيد وطلب منه التمثيلية ثم دفعها إلى مخرج قادر على الإثارة هو يوسف الحطاب، الذى كان صديقا لى أيضا، والذى أبلغنى على الفور بأنه سيشرع فى إخراجها واقترح علىّ اسما بالغ الإثارة هو "مصاصو الدماء" ، ولم أعترض رغم كراهيتى الطبيعية للمبالغة، ولكن يبدو أن الحطاب وربما السيد بدير أيضا كانا سعيدين جدا بهذا العنوان» .

«أبلغنى الحطاب بموعد البروفة الأولى، وكان علىّ أن أحضر لأشترك مع الممثلين فى تصحيح النسخ المكتوبة على الآلة الكاتبة، والتى كانت دائما مليئة بالأغلاط. ذهبت إلى الإذاعة بشارع الشريفين، ودخلت غرفة البروفات ففوجئت بالحاضرين . لم تكن التمثيلية من ذلك النوع الذى يتشكل من "شخصيات" أو ذات طابع أدبى خالص، إنما كانت الشخصيات التى أظهرتها فيها يشار إليها بصوت (١) أو (٢) وبالتالى ليست فى حاجة إلى ممثل كبير، ولكننى وجدت يوسف وهبى ومنسىّ فهمى وأمينة رزق وغيرهم من كبار الممثلين الذين لا تناسبهم مثل هذه البرامج ذات الطابع الإعلامى والسياسى» .

«وقفت مذهولا حتى نبهونى بأن أجلس وأتابع القراءة للتصحيح . وسرحت بطبيعة الحال فى هذا الاحتشاد الهائل لتمثيلية، مهما تكن فهى مجرد تحويل كتاب سياسى خالص إلى عمل درامى إذاعى . على أننى قلت لنفسى : «لا دخل لك، هما (يقصد: السيد بدير، ويوسف الحطاب) أرادا ذلك»، أعنى المخرج ومدير التمثيليات، وربما كانت لديهما وجهة نظر ما».

«وفى يوم الإذاعة اصطحبت صديقا لى كان من زملاء التنظيم السياسى اليسارى قبل أن أعتزله ليسمع التمثيلية ويقول لى رأيه فيها».

(٥٠)

وقبل أن يسرد علينا أحمد عباس صالح انطباع الثورة والحكومة عن عمله هذا، يمهد لهذا الانطباع «القاتل» بالحديث عن رأى صديقه اليسارى القديم، وعن رأى والده هو نفسه، ثم إذا هو يفاجئنا بما لم يكن هو ولا غيره يتوقعونه من رد فعل قاتل(!!)

وربما أن تصوير أحمد عباس صالح لهذا الذى حدث فى ذلك اليوم لا يحتمل تعقيبا ولا تعليقا:

«. . . وأذيعت التمثيلية فى هذا الجو الصاخب من عودة أم كلثوم واهتمام الناس جميعا بهذه المناسبة . وما إن انتهت حتى رأيت وجوما على وجوه الجميع، إذ كنا نستمع إليها فى بيتى، وقال صديقى الذى كان مدرسا للغة الإنجليزية فى المدارس الثانوية : «كيف وافقوا على هذه التمثيلية ؟!» وقبل أن أجيب وجدت أبى يخرج من حجرة أخرى ويقول لى : «كيف تكتب فى الإذاعة الحكومية مثل هذا الكلام الشيوعى الصارخ ؟!»».

«وعلى الرغم من قلقى خاصة بعد سماع التمثيلية التى برع يوسف الحطاب فى إخراجها البالغ الإثارة، فقد قلت لهم : إنكم تظلمون الثورة، إنهم تقدميون حقيقيون».

«خرجنا من البيت أنا وصديقى، الذى صار عليه أن يراجع موقفه من الثورة بعد سماع التمثيلية فلابد أن تكون الحكومة موافقة على هذه الآراء وإلا كيف أذيعت على الناس فى هذا اليوم الباهر ؟».

«كنا عادة ما نذهب إلى الإذاعة فى اليوم التالى لإذاعة البرامج التى نكتبها لنقبض مكافأة التأليف . وكان على الداخل إلى مبنى الإذاعة أن يهبط درجتين حيث يوجد مصعدان على الجانبين يجلس بينهما عادة رجل أمن من موظفى الإذاعة، وكان من عادتى أن أحيى هذا الرجل أو زميله وأنا أتجه إلى المصعد، وكان الرجل سمح الوجه لطيفا، وعلى الرغم من أنه لم يجر بينى وبينه أى حديث طوال السنتين الماضيتين، أى منذ الثورة، إلا أن شيئا من الارتياح النفسى كان قائما بينى وبينه، ولعله كان يتابع تمثيلياتى ويشعر بشىء من الرضا عنها . وكالمعتاد حييت رجل الأمن وأنا أتجه إلى المصعد حيث اتجهت إلى الحسابات لأحصل على إذن صرف المكافأة، وكانت مزدحمة بالمتعاملين مع الإذاعة، فوقفت أنتظر دورى . وبعد قليل وجدت شخصا يهمس فى أذنى من ورائى قائلا : «لا تنظر خلفك . إن اثنين من المخبرين جاءا من أجلك وقد أشرت لهما عليك . . خذ بالك» . وشعرت بالهامس وهو يبتعد ولم أملك إلا أن أختلس إليه نظرة سريعة وأنا أشعر أنى مراقب، فوجدت هذا الرجل الطيب، رجل أمن الإذاعة».

«لم أضيع وقتى فتركت إذن المكافأة وصعدت إلى مكاتب الموظفين لألتقى بـ "أركان حرب الإذاعة" ، وكان هذا هو لقبه، إذ كان يرأس الإذاعة صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الإرشاد القومى، ويديرها «أركان حرب»، وكان هذا الرجل (عبد المنعم السباعى) ضابطا فى الجيش محبا للصحافة والشعر قبل أن تندلع الثورة، وكنت أعرفه من خلال عملى فى الصحافة وخاصة مجلة «روز اليوسف» التى كان يكتب فيها . كان ممتلئ البدن خشن المظهر، لكنه ذو قلب رقيق، وكتب بالفعل أغانى جميلة بالغة الرقة فى الحب والحياة، غناها عبد الوهاب وأم كلثوم . وكنت أمر عليه فى غرفته فأشرب معه فنجانا من القهوة ونتحدث قليلا فى أمور حياتنا حتى أصبح بالفعل صديقا لى . قررت أن أذهب إليه مباشرة وأعرف منه

ماذا حدث بالضبط . كان من عادتى أن أفتح بابه دون المرور على سكرتيره، الذى كان أيضا «صولا» من الجيش . وما إن اقتربت من باب مكتبه حتى قفز هذا الصول واعترضنى قائلاً إن «البك» لديه اجتماع» .

«وقفت مذهولا وصور كثيرة تتداعى على ذهنى، ولعلى كنت أفكر فيمن يجب أن أذهب إليه لأعرف حقيقة ما حدث وخطر على بالى بالطبع يوسف الحطاب، مخرج التمثيلية وشريكى فى «الجريمة»، وكان لمخرجى الإذاعة غرفة تضم عددا من المكاتب، فذهبت إليها على الفور، وما إن فتحت الباب حتى وجدت يوسف الحطاب ممدداً فوق مكتبين ضما إلى بعضهما البعض ليتسعا لجسده الممدد، وكانت المذيعة آمال فهمى تهوِى على وجهه بورقة ووقفت إلى جانبها المذيعة فضيلة توفيق، فى محاولة للترويح عن زميلهما المخرج فاقد الوعى أو المضطرب . حييتهم تحية الصباح بصوت غير سوى فإذا بيوسف الحطاب يهب جالسا ويصيح فى وجهى : وديتنا فى داهية يا . . .» .

«وجدتنى أقمعه بعنف ربما بسبب خوفى واضطراب أعصابى، وأظنه جلس فوق المكتب وراح يجيب على أسئلتى فيما يشبه الهلوسة . وفهمت أن هناك اتهاما خطيرا بالمشاركة فى مؤامرة ضد الثورة» .

«كنت أعرف رقم التليفون الداخلى لعبد المنعم السباعى - أركان حرب الإذاعة - فجلست إلى مكتب من هذه المكاتب الفارغة وطلبته فأجاب على قائلا فى استعطاف : «أرجوك أبعدنى عن هذا الموضوع، إنه موضوع خطير وليس لى دخل به» .

«كان من الواضح أن الخوف قد استولى على الجميع، وكان لابد أن أذهب إلى مكان آخر . كنت أعمل بجريدة الجمهورية وكذلك يوسف الحطاب، الذى كان يزودنا بأخبار الإذاعة وببعض التعليقات على أعمالها، وكان رئيس التحرير هو حسين فهمى، الذى كانت تربطه برجال الثورة علاقة ما قد يكون لها خلفية عائلية، وكان قبل الثورة رئيسًا لتحرير جريدة «الزمان»، التى كان يصدرها صحفى من أصل لبنانى متمصر هو إدجار جلاد . وكان مهنيا جيدا وإنسانا جيدا أيضا فطلبته فى التليفون فما إن سمع صوتى حتى صاح : «أنت فين ؟ تعال فورا، أنت ويوسف الحطاب»» .

«عندما وصلنا إلى مبنى الجريدة رأينا نظرات الاسترابة فى عيون رجال الأمن المسئولين عن استقبال الداخلين سواء من العاملين أو من غيرهم . وفى حجرة حسين فهمى عرفنا الموضوع» .

(٥١)

ونأتى إلى جوهر الأزمة على حسب ما تصورته الثورة، وعلى حسبما تم «سرده» «سردا» واقعيا على نحو سريع لم يكن أحمد عباس صالح نفسه يتوقعه :

«كُتب تقرير عن التمثيلية يقول إن هناك مؤامرة دبرها اليساريون بانتهاز فرصة اليوم الذى يحتشد فيه المصريون لسماع أم كلثوم فتذاع هذه التمثيلية التى تشجع إضراب العمال وتحضهم على التظاهر، خصوصا عمال كفر الدوار، الذين أعدم منهم عاملان هما خميس والبقرى منذ فترة قصيرة، فتشتعل كفر الدوار ثم تنتقل المظاهرات إلى المدن العمالية الأخرى وتنضم إليها الحشود الشعبية ويعمل المدبرون على إسقاط الحكومة» .

«ولكن كيف أذيعت التمثيلية مع وجود رقابة حاسمة على كل كلمة تذاع من الإذاعة ؟ فقيل إننا خدعنا المسئولين ومررنا التمثيلية دون أن يلتفت إلى خطورتها أحد منهم» .

«واتضح بعد ذلك أن التمثيلية لم يقرأها أحد، لا السيد بدير ولا أركان حرب الإذاعة ولا أى مسئول آخر . أما يوسف الحطاب، المخرج، فربما كان متواطئا هو الآخر . ولم يتم القبض علىّ ولا على يوسف الحطاب ريثما يرجعون إلى صلاح سالم الوزير المسئول ليعرف تفاصيل الموضوع بالضبط، وبناء على ذلك يتم التعامل معنا» .

(٥٢)

وها هو مجلس قيادة الثورة بكامل أعضائه يتولى التحقيق مع صاحب المذكرات الذى لم يكن يعرف عبد الناصر ولا غيره، وإن كان يعرف صلاح سالم من صوره، كما كان بالطبع يعرف أنور السادات الذى اجتمع أعضاء مجلس الثورة فى مكتبه فى مبنى جريدة «الجمهورية» :

«. . . كان ضباط الثورة يلتقون ليلا فى مبنى جريدة الجمهورية فى حجرة أنور السادات، الذى كان رئيسًا لمجلس إدارة الدار . وبقيت منتظرا وأنا أحسب ألف حساب

لهذه الكارثة، ولسوء الفهم العجيب الذى يحيط بى . وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استدعيت لأمثل أمام صلاح سالم ورفاقه فى حجرة السادات . كان مكتب السادات فى صدر الغرفة من ناحية الباب، بينما كان هناك كنب يغطى كل الحائط المجاور للباب وكذلك الحائط المتفرع منه، وفى مواجهة الداخل يوجد مقعدان كان يجلس على الأول منهما أنور السادات وعلى الثانى صلاح سالم . فى هذا الوقت لم يكن مثلى يعرف محمد نجيب إلا من صوره ومن ظهوره للجمهور بين وقت وآخر، وكنت بالطبع أعرف أنور السادات وصلاح سالم الذى كان يلعب دور المتحدث الرسمى باسم الضباط . أما الباقون فلم أكن أعرف منهم أحدا».

«عندما دخلت إلى الغرفة، تلفت يمينا وشمالا فشاهدت عددا كبيرا من الضباط فى زيهم العسكرى ولم يشذ أحد . . حتى صلاح سالم وأنور السادات، كانا فى ثيابهما العسكرية أيضًا، على أنى التفت فوجدت حسين فهمى واقفا خلف المكتب يتطلع إلىّ مشفقا».

(٥٣)

ويجيد أحمد عباس صالح وصف حالته النفسية التى حضر بها هذه المحاكمة الفريدة التى واجهها على حين فجأة، ومن الحق أن نشير إلى أن تصويره الهادئ لهذه اللحظات يحفل بكل ما هو معجز من الصدق، ودقة التعبير، وهو يقارن بين خشونة صلاح سالم التى لا نهاية لها، وبين عطف أنور السادات الذى كان بمثابة الشىء الوحيد المطمئن فى الساحة الحافلة بالتوتر، وفى خضم هذا قدر له أن يعرف عبد الناصر معرفة أوقفت شعر رأسه على حد تعبيره!! :

«كنت منهكا إلى حد السقوط، فهأنا منذ الصباح وحتى الآن أعانى من توترات المصير المشئوم الذى راحت تهددنى به التنبؤات المختلفة التى كانت تأتى طوال الليل. وهأنذا أقف أمام هؤلاء العسكر الذين يملكون السلطة الكاملة على الدولة، والذين تصدر قراراتهم بلا مراجعة من أية سلطة أخرى . وأحسست أننى فرد وحيد أمام سلطة مطلقة لا رادع لها . لم تحمنى نقابة أو صحافة أو حزب أو رأى عام . وحيد تماما ربما لم

أعرف هذا النوع من الوحدة والضياع من قبل . وأدركت مدى بشاعة الظلم الذى يشعر به الإنسان فى مثل هذه الظروف» .

«كان صلاح سالم خشنا إلى درجة غير عادية وابتدرنى قائلا بشكل عدائى : قل لى من معك فى هـذه المؤامـرة؟ قل وإلا سوف ترى الويل» .

«الحق أننى أحسست إلى جانب الشعور بالوحدة والظلم، أن الموقف كله عبثى ولأمر ما تملكتنى شجاعة تأتى من اليأس فى العدل، وأننى لم أرتكب فى الحقيقة أى خطأ فرحت أحكى لصلاح سالم كيف كتبت التمثيلية لصوت العرب، وأن الذى أخذها دون أن يقرأها هو السيد بدير والآخرون المسئولون عن القراءة، وأن سياسة صوت العرب مختلفة عن سياسة البرنامج العام . ولكنه كان يقاطعنى ويزعم أنه سأل أحمد سعيد فأنكر هذه القصة، فطالبته بأن يأتى بأحمد سعيد ويواجهنى . وكنت بين لحظة وأخرى ألقى نظرة سريعة بين سؤال وجواب على هؤلاء العسكر، فأشعر بجو عدائى يحيط بى من كل جانب، ولكن السادات كان يعقب على أقوالى قائلا بصوته المميز : "صح" وكان هذا هو الشىء الوحيد المطمئن بين تلك المساحة المليئة بالتوتر والتحفز» .

«لست أذكر بالضبط كم استغرق هذا الاستجواب، ربما خيل إلىّ أنه استغرق ساعات، لكنه لم يستغرق فى الغالب أكثر من عشرين دقيقة . وأثناء جدالى ودفاعى عن نفسى، وأنا أواجه صلاح سالم، شعرت بأن خطرا يتهددنى خلف رأسى، حتى أننى شعرت بأن شعر رأسى يقف وأن علىّ أن أنظر خلفى سريعا حتى أقفز بعيدا عن هذا الخطر . وهنا رأيت الرجل الذى يجلس على حافة الكنبة خلفى ويتكئ بذراعه على جانب الكنبة، كان مائلا إلى الأمام يصغى بانتباه، وكان ذا عينين لهما لون غريب بين الأصفر والرمادى، وعندما واجهت عيناى عينيه انصرف عنى ولوح بيده لصلاح سالم الذى قال لى : تفضل . . امش . .» .

«وقفت ثوانى مترددا ثم استدرت خارجا وخرج فى إثرى حسين فهمى، الذى كان فرحا بالنتيجة وقال لى إن الموضوع قد انتهى، وهنأنى على ذلك . ولكنى سألته عن هذا الرجل الجالس ورائى، والذى أعطى الأمر بإنهاء التحقيق، فقال إنه جمال عبد الناصر» .

. . . . . .

. . . . . .

وهو يصل بعد هذا كله إلى قوله:

«كنت فى العشرينات من عمرى، ولا أملك أى شىء من أسباب القوة، ولذلك كان غضبى شديدا وشعورى بالظلم والإهانة كان طاغيا ولعلى عرفت فى تلك الليلة بشكل مباشر الوجه البشع للسلطات المطلقة».

«عندما أويت إلى فراشى قررت أن أمسح مشاهد اليوم من ذاكرتى ومن حياتى، على أننى عندما ذهبت إلى الجريدة فى ظهر اليوم التالى، جاءنى سكرتير رئيس التحرير ليعطينى خطاب فصلى من العمل. وفى نفس اليوم علمت أن لافتة كبيرة وضعت على الباب الخارجى لمبنى الإذاعة بمنعى من الدخول».

(٥٤)

ويصور أحمد عباس صالح السبب الذى جعله ينجو من الاعتقال مع اليساريين ١٩٥٩، وهو يذكر هذه التفاصيل فى الفصل السادس عشر من مذكراته، وذلك بعد أن يتحدث عن صداقته لمحمد أبو نار، وعن صفات ذلك الصديق ومزاياه، ومن الطريف أنه لم يكن وحده، حسب روايته، صاحب هذا الحظ السعيد، لكنه كان واحدا من مجموعة من مشاهير اليسار:

«. . . كان محمد أبو نار (هو لمن لا يعرفه واحد من الضباط الأحرار) ميالا إلى معاشرة الكتاب والمثقفين بشكل عام. وقد عرفته بأصدقائى المقربين فى هذا الوقت مثل محمد عوده وكامل زهيرى ويوسف إدريس وغيرهم. وكثيراً ما كنا نلتقى فى مناسبات عديدة فى مجالس الحديث الممتعة، التى كانت أسلوبا من أساليب الحياة المصرية وتقاليدها الراسخة. وقد نفعت هذه العلاقة فى حادثة صغيرة ولكن لها دلالة كبيرة. ففى سنة ١٩٥٩ خاصم جمال عبد الناصر الاتحاد السوفييتى، فقرر اعتقال جميع الشيوعيين، بل اليساريين بشكل عام. وكانت وزارة الداخلية بناء على أمر من جمال عبد الناصر تعد كشوف الاعتقال. وكان الوزير فى هذا الوقت هو عباس رضوان،

الذى كان صديقا حميما لمحمد أبى نار، وكان هذا الأخير فى زيارة له فى مكتبه وكانت هذه الكشوف أمامه على المكتب وامتدت يد أبى نار فأمسكت بالكشوف وراح يقرأ الأسماء فإذا به يجد اسمى واسم يوسف إدريس ومحمد عوده وكامل زهيرى ونعمان عاشور، ولعله فكر قليلا وتذكر أننى - بصفة خاصة - العائل الوحيد لأسرتى الكبيرة، ولعلنى كنت قد تزوجت فى هذه السنة، فقال للوزير : ألا يمكن شطب هذه الأسماء ؟ إنهم أصدقائى الحميمون، وسوف يكون موقفى محرجا لو تم القبض عليهم ؟».

«وكان عباس رضوان شخصا طيبا، وقد عرفته عن قرب بعد ذلك بسنوات قليلة. تردد قليلا ثم قال لأبى نار سوف أغير الكشف وأشطب أسماءهم . ولكن من عادة عبد الناصر أن يقرأ الكشوف اسما اسمًا، وأحيانا يشطب اسمًا، وأحيانا أخرى يضيف اسمًا، فإذا أضاف أسماء هؤلاء لن أستطيع أن أفعل شيئا . وبالفعل أعيدت كتابة الصفحة التى تحتوى على أسمائنا وذهبت الكشوف ولم يتذكر عبد الناصر أى اسم منا وهكذا نجونا من اعتقالات سنة ١٩٥٩».

(٥٥)

وعقب هذا التصوير «الذكى» لما يصوره عبثا يؤكد أحمد عباس صالح فكرته فيقول :

«. . . هكذا كانت الحياة السياسية فى مصر بكل بساطة . لم تكن هناك جريمة معينة أو موقف سياسى خطير معاد يسعى أو يقدر على قلب السلطة . وكان اعتقال الناس رسالة رمزية لا أكثر ولا أقل فى بعض الأحيان . ولكونك يساريا بشكل ما، كان عليك أن تحذر الفصل من العمل أو الاعتقال حسب الأحوال المزاجية أحيانا . ويبدو أن عملية الاعتقال لم تكن شيئا مقلقا بالنسبة لمصدر القرار .

طبعا لم أعرف هذه القصة إلا بعد زمن طويل من حدوثها، وبعد أن أصبح أبو نار آمنا ليرويها لى».

(٥٦)

وقبل هذا فإن أحمد عباس صالح يروى فى الفصل الرابع عشر من مذكراته كيف

قدر له هو نفسه أن يسهم فى نجاة يوسف إدريس من الاعتقال الذى كان قد تعرض له مع الشيوعيين، وفيما يبدو فإن هناك تعارضا فى الروايتين، وبخاصة فيما يتعلق باسم يوسف إدريس، إلا أن تكون المصادفة تكررت مع اسم يوسف إدريس مرتين، ونحن نعرف بالطبع أن اعتقالات ١٩٥٩ (أو اليوم الأخير من ١٩٥٨) قد جاءت بعد أن استقل السودان فى أول يناير ١٩٥٦ (!!) ونحن بالتالى نتحفظ على بعض ما فى هذه الرواية!!:

«. . . كانت الثورة قد اعتقلت عدداً من الشيوعيين وأودعتهم السجون، ولعلى قلت لصلاح سالم إنكم تعتقلون الشيوعيين، فكيف تريدهم أن يساعدوكم، فقال متحمسا: قل لى من هم أصحاب التأثير الأكبر على الشيوعيين السودانيين، فقلت إننى لا أعرف. وكنت لا أعرف بالطبع، وربما قلت له إن على أن أسأل. وأذكر أننى لجأت إلى الشاعر كمال عبد الحليم، الذى كان مسئولا كبيراً فى حركة حدتو الشهيرة وعرفته بمحمد أبى نار، فرشح له مجموعة من الشيوعيين المعتقلين على أنهم كانوا مسئولين فى التنظيمات الشيوعية عن المسئولين السودانيين الحاليين، وأعطاه بعض الأسماء، منها أخوه الكاتب إبراهيم عبد الحليم. وهنا أدركت أن المسألة كلها اجتهاد من كمال عبد الحليم للإفراج عن المقربين إليه، فقلت فى نفسى لماذا لا أستفيد أنا من هذه الفرصة فأضع اسم صديقى يوسف إدريس، الذى كان معتقلا منذ أكثر من عام ونصف عام. فقلت لأبى نار أن يضع اسم يوسف إدريس من بين الذين ينبغى الإفراج عنهم للمساعدة فى إقناع السودانيين بصواب الدعوة إلى الوحدة. وبالفعل وضع الاسم وتم الإفراج عن الأربعة أو الخمسة المختارين».

«وفى يوم الإفراج انتظرت فى مبنى قصر عابدين لأرى صديقى يوسف إدريس. وبالفعل، جيء بهم إلى ذلك القصر المهيب، الذى كنا نراه من خارج الأسوار فقط، والذى كان يطل علينا من شرفته الخارجية الملك فاروق فى سالف الأزمان. ظهر الرجال الخمسة فى ثياب شبه متسخة وممزقة وهم فى حالة ذهول».

«وعندما استقبلت يوسف إدريس بالأحضان، كان مذهولا ولم يكن يعرف كيف أفرج عنه ولماذا. والأعجب من كل ذلك، ما علاقتى أنا بالموضوع، وما الذى جاء بى

إلى هذا المكان ؟! وربما لم يكن يعرف علاقتى الشخصية بمحمد أبى نار تلك العلاقة التى نشأت - فى الغالب - ويوسف إدريس فى المعتقل . وكانت الأمور كلها مشتبها بها . فنحن نسمع بين وقت وآخر عن علاقة زميل أو آخر بالسلطة ، وهى علاقة مشبوهة لصلتها بالأمن والتجسس ، فهل أنا صديقه الموثوق من هذا النوع من الناس؟» .

«على أنه كان فى حاجة إلى أن يخلع عنه وعثاء السجن ويستحم بدنا ونفسا قبل أن يعيد التفكير فى أى شىء . ربما ذهبت إليه فى اليوم التالى ورويت له تفاصيل القصة. وكان موضوع السفر إلى السودان قد بهت شيئا ما ، إذ كان صلاح سالم يلعب أوراقه الأخيرة وكان الوقت قد فات لتدخل المثقفين المصريين اليساريين لإقناع زملائهم السودانيين بفضائل الوحدة» .

وهنا ينتهز أحمد عباس صالح الفرصة للتعليق فيقول :

« . . . ويبدو من هذه القصة أن كل فرد من قيادات الثورة كانت له صلاحيات واسعة فيما يخص موقعه . إذ أن الإفراج عن هؤلاء المعتقلين تم بناء على أمر منه للمسئولين عن الاعتقالات . فعندما كنت أقترح عليه الأسماء قال لى أنه سيصرف لكل شخص مبلغ مائتى جنيه كمعونة سريعة لترتيب أحوالهم بعد السجن ، ولكننى طلبت خيرا من ذلك أن يعينوا فى الصحف ، إذ كانوا كتّابًا ورسام كاريكاتير واحد هو زهدى . فقال لى إنه لا يملك تعيينهم إلا فى مجلة الإذاعة التى كانت تتبعه كوزير للإرشاد القومى» .

(٥٧)

وإذا كان هذا التصوير الذى أجاده أحمد عباس صالح لكرامة الإنسان غير المستقرة على يد نظام الحكم فى عهد الثورة مردودا عليه بأنه يتحدث عن تجربته هو أو عن تجربة صديق مقرب كيوسف إدريس ، فإنه يحدثنا حديثا آخر يدل دلالة قاطعة على مدى ما يلعبه الحظ فى إنقاذ كثيرين من مصائرهم الثورية ! ! بفضل صدف عابرة ، وهو ما يتبدى بوضوح مما يقصه علينا أحمد عباس صالح قصة درامية تتعلق بإنقاذ حمدى غيث من التشرد بفضل مسلسل «أبى ذر الغفارى» :

«. . . اقترحت . . . أن أكتب للإذاعة سيرة الصحابى أبى ذر الغفارى، والذى كانت له ميول اشتراكية بالغة الوضوح . وكنت أحب هذه الشخصية منذ قراءات الطفولة . ورحت أجمع المواد، وهى نادرة إلى حد ما بسبب هيمنة الاتجاهات السلطوية على التاريخ الإسلامى . وكتبت السيرة فى شكلها الدرامى الإذاعى وأنا شبه متبتل. وعندما سلمتها لأحمد سعيد رشحنا معا الإذاعى الشاب - فى ذلك الوقت - أمين بسيونى الذى جلست معه لاختيار الممثلين، ورأيت أن اصلح من يؤدى الدور هو الفنان حمدى غيث . ولكن هذا الممثل كان موقوفا عن العمل بأى منبر من منابر الفن، لأنه شارك فى مؤتمر للسلام فى إحدى الدول الأوروبية، واتهم بتوجهاته الاشتراكية أو اليسارية بشكل عام . ولعله كان مفصولا من كل وظائفه بما فى ذلك عضويته بفرقة المسرح القومى . على أننى صممت على أن الوحيد الذى يصلح للدور هو حمدى غيث . ولذلك كان على أحمد سعيد أن يتصل بالدكتور عبد القادر حاتم ويستصدر منه قرارا بعودته للعمل . حدث كل هذا والدولة تتجه إلى الاشتراكية وتعيش تطبيقاتها وتسعى للدفاع عنها إعلاميا . ونجح أحمد سعيد فى أن يستصدر قرارا بالغ الغرابة والقسوة . فقد وافق الدكتور حاتم على أن يعمل حمدى غيث فى هذا البرنامج فقط وبعد ذلك يمنع من أى عمل آخر فى أجهزة الدولة التى كانت تملك كل شىء متعلق بالميديا أو الفنون الدرامية» .

«وبدأنا العمل فى التمثيلية وأدى غيث الدور وكأنه بالفعل أبو ذر الغفارى . وأذيع البرنامج فى توقيت غريب أيضًا، أظنه كان فى الثانية عشرة مساء . وكان من عادة عبد الناصر أن يقلب فى الإذاعات يستمع إلى الأخبار أو البرامج قبل أن ينام . وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل جاءت يده على محطة صوت العرب فسمع حوارا يتكلم فيه أبو ذر فشده وظل يستمع إلى أن انتهت التمثيلية وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا، إذ كانت التمثيلية معدة لسهرة كاملة تطول إلى ساعتين، وهو توقيت أية مسرحية طويلة . وعندئذ طلب الدكتور حاتم فى التليفون ليهنئه على التمثيلية، وأبدى إعجابه الشديد بأداء حمدى غيث وسأل أين هو فقال له حاتم إنه موقوف أو مفصول من العمل، فصاح عبد الناصر مندهشا، ثم أمر وزيره بأن يستدعيه ويعيده إلى العمل، بل يختاره لأحد مناصب الوزارة الكبرى، ثم أوصاه بأن يستدعينى لأكتب هذه السيرة فى فيلم سينمائى» .

« كان حمدى غيث يعيش متخوفا من أجهزة هذه السلطة، التى اعتبرته معاديا وطردته من وظائفه» .

و«لست أدرى ما الذى حدث بالضبط وجعل الدكتور حاتم يكلف أجهزة الشرطة بأن تبعث فى طلب حمدى غيث . هل حاولوا الاتصال به بالتليفون أو بالوسائل الأخرى فلم يفلحوا ؟ أحس غيث بأن سيارة شرطة تسأل عنه فراح يتهرب منها، ولكن بعد ثلاثة أيام أمكن «القبض» عليه وأخذوه أخذا إلى مكتب الدكتور حاتم . حكى لى غيث كيف ركبه الرعب وهم يسوقونه إلى الوزير، ولكن عندما دخل المكتب وجد الوزير يخرج من خلف مكتبه ليستقبله بالأحضان . وروى له القصة كلها وتم تعيينه وكيلا لوزارة الإعلام لشئون مسرح التليفزيون» .

«خرج غيث من هذه التجربة المذهلة بأن الذى حدث مجاوز للعقل والمنطق، ولابد أنه متصل بالقوى العليا، وأنها إرادة إلهية هى التى غيرت كل شىء بسبب أدائه الصادق المعبر عن إيمان حقيقى لدور هذا الصحابى العظيم . وبالفعل راح يصلى الفرائض ويغرق فى التدين» .

. . . . . .

. . . . . .

ربما جاز لنا أن نشير هنا إلى أن هذه المرحلة من حياة حمدى غيث ليست مشهورة، وربما أنها ليست معروفة .

(٥٨)

هكذا لا يكف أحمد عباس صالح عن رواية كثير من المواقف الفارقة التى تكشف بوضوح عن طبيعة الشمولية وما يشوبها من القهر والخوف اللذين كانا بمثابة نتيجة طبيعية لهذا النمط من الحكم، ولنقرأ على سبيل المثال ما يتحدث به عن تجربة لطفى واكد، وعن انطباعات ذلك الرجل حين زاره أحمد عباس صالح بعد خروجه من السجن :

« . . . كان رئيسا لمجلس إدارة جريدة الشعب، وهو الذى استقبلنى استقبالا حارا عندما انضممت إلى هذه الجريدة . وكان رجلا محبا للثقافة . وكان خاله المفكر أحمد

لطفى السيد، الذى لعب دورا كبيرا فى تاريخ مصر الحديث الثقافى والسياسى . وكان من الضباط الأحرار وأظنه من أوائل الذين اشتغلوا فى مكتب جمال عبد الناصر . وكان من المكانة فى تنظيم الضباط الأحرار بحيث تناقش فى موضوع تنصيب لطفى السيد رئيسا للجمهورية فى بداية الثورة».

و«كان نموذجا جيدا لأبناء الطبقة الوسطى العليا فى مصر إذ كان لأسرته شىء من الملكية الزراعية المتوسطة، ولكن اهتماماته السياسية كانت الاهتمامات الشائعة فى الشرائح المختلفة لهذه الطبقة . ولم يكن ضد الفكر الاشتراكى فهو فى النهاية أصبح نائب رئيس حزب التجمع "الاشتراكى" الذى أسسه صديقه الحميم خالد محيى الدين . فقد ألقى القبض عليه بتهمة كتابة منشورات وتوزيعها ضد سلطة عبد الناصر».

«ولا أظن أننى ناقشته فى تفاصيل هذه الواقعة أو لعلى نسيت هذه التفاصيل، فالذى أريد أن أرويه هنا شىء آخر . إذ عندما أفرج عنه بعد أن قضى فى السجن حوالى سنتين من حكم بالسجن لمدة خمسة عشر عاما قررت بالطبع أن أزوره فى بيته لأهنئه وأريه أننى لم أجد فيما اتهم به شيئا يشينه وأن مودتى له كاملة».

«عندما فتح لنا الباب وقف محملقا فينا ثم تعانقنا . وجلسنا فترة ما وانصرفنا على أن ينضم إلينا فى مجلة الكاتب وبالفعل بدأ يقضى أغلب وقته معنا فى مقر المجلة إذ لم يكن له أى عمل حينذاك . وذات يوم حكى لى أنه استغرب كثيرا عندما فتح باب شقته ورآنا، إذ كان جميع معارفه ينصرفون عنه إذا تصادف وقابلهم وأن أحد أقاربه رآه وهو يسير فى أحد الشوارع فانتقل إلى الرصيف المقابل حتى يتجنب الحديث إليه».

ويعقب أحمد عباس صالح على هذه القصة بقوله:

«وهكذا زرع الخوف فى قلوب الناس حتى امتنعت المروءة، ومن المؤكد أن هذه المشاعر الخائفة انتشرت فى صفوف جميع الناس بمن فى ذلك الجنود والضباط وهو ما يفسر الأداء السيئ فى تلك الحروب».

(٥٩)

ويبدو أن أحمد عباس صالح كان مرتاحا إلى تشخيصات يوسف إدريس فى وصف الثورة، حتى إنه كان يكررها كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وانظر إلى قوله:

«. . . كان صديقى «يوسف إدريس» يقول: أنه حدث إخصاء للشعب المصرى وهو يقصد أن الرجولة قد استؤصلت من نفوسنا، وكنت حين استمعت إليه وهو يستخرج هذه العبارة من أعماق صدره أصدقه وأنا أنظر حولى كما لو كنت أعيد فحص وجوهنا . ولعلى اكتشفت أهمية السلطة فى تكوين سلوكيات الناس الذين تحكمهم».

وفى الفصل الأخير (الثامن والأربعين) يستعيد أحمد عباس صالح بعض ما قاله يوسف إدريس:

«. . . وكم تذكرت قول يوسف إدريس ذات مرة إن الحرية المتاحة فى مصر لا تكفى لتنجب نصف كاتب، ولعلى لم أفهم مدلول الحرية إلا بعد الكثير من تأمل الحياة التى نحياها».

(٦٠)

ونصل الآن إلى الحديث عن الشخصيات التى قدر لأحمد عباس صالح أن يفيد منها ومن خبرتها، فى أثناء عمله الوظيفى، ومن هؤلاء السيدة روز اليوسف التى يتحدث عنها فى هذه المذكرات بحب وتقدير شديدين، منفردا برواية موقف غير مشهور لها مع رجال الثورة:

«. . . كانت (الضمير يعود على روز اليوسف) شديدة الذكاء، قوية الملاحظة، لديها إحساس طاغ بأنوثتها حتى فى هذه السن . ولست أدرى كيف اكتسبت هذه القوة فى مقاومة الأحداث وأعتى الرجال وكان لديها إحساس قوى بذاتها وبكرامتها . وفى هذا الوقت لم يكن لديها مشاكل مالية، وكانت تدير المجلة بكفاءة عالية، واختيارها لأحمد بهاء الدين لسد فراغ ابنها المحبوس، دليل على كفاءتها فى الاختيار، وبالفعل كانت تفاجئنى بآرائها البالغة النضوج فى كتابات الكتاب الذين يكتبون فى المجلة، أو فى غيرها من الصحف».

«وكانت تعيش حياة مطمئنة - بشكل ما - مع زوجها الذى ينحدر من صلب ذلك الرجل الذى دعا إلى تحرير المرأة فى السنوات الأولى من القرن العشرين، تسكن فى

شقة جميلة فى الدقى على ما أذكر وتدعو إلى بيتها أحيانا بعض العاملين معها أو الأصدقاء . وكانت ماهرة فى الطهو أيضا وشغوفة بالحياة، وكانت تملك سيارة أقرب ما تكون إلى الفخامة يقودها سائق قديم» .

«لا أذكر اليوم الذى أفرج فيه عن إحسان عبد القدوس، ولعله كان فى سنة ١٩٥٥. وعندما عاد إلى العمل كان يوما عظيما بالنسبة لها، وأظن أنه بعد يوم أو اثنين، جاءها خبر بأن وفدا من مجلس قيادة الثورة جاء ليزورها ويهنئها بالإفراج عن ابنها علامة على المصالحة، وعودة إلى الصداقة القديمة التى كانت تربط بين إحسان والكثيرين من قادة الثورة، وكان الوفد على ما أذكر مكونا من جمال سالم وعبد اللطيف البغدادى وربما شخص آخر» .

« كنت واقفا فى حجرتها ونحن نترقب وصول هذا الوفد، وكان لديها "بوف" تضع عليه ساقيها عندما يتعبها الجلوس، وفى هذه اللحظة دخل ساعى مكتبها مسرعا ليقول لها إن الضباط قد وصلوا وأنهم يصعدون السلم الآن، فأشارت إليه بسرعة أن يقرب «البوف»، وما إن فعل حتى مدت ساقيها عليه، ودخل الضباط ليسلموا عليها فمدت يدها إليهم معتذرة بعدم قدرتها على الوقوف على قدميها بسبب آلام فى ساقيها، وتقبل الجميع هذه الحجة ولعلهم انحنوا على يدها فقبلوها . وجلسوا جميعا قليلا ريثما شربوا شيئا من القهوة أو العصائر وراقبتها وهى تتصرف كامرأة عظيمة دون أن تهتز لها شعرة، وكانت تعطى انطباعا بأنها غاضبة لما حدث لابنها ولكنها تتقبل الاعتذار ولا تقدم الشكر على الإفراج عنه» .

«عندما انصرفوا، كنت واقفا فى الحجرة أنظر إليها بإعجاب شديد، فقامت واقفة ونظرت إلىّ وكأنها تقول : هل أعجبك هذا يا ولد؟» .

(٦١)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فمن واجبنا أن نذكر بعض انطباعات أحمد عباس صالح عن بعض الشخصيات الفنية التى آثر الحديث عنها باعتزاز شديد، وهو يثنى على السيدة الفنانة نادية لطفى فى فقرات متعددة من مذكراته، مشيرا باعتزاز إلى صالونها وعلاقاتها الاجتماعية الدافئة :

«. . . وكانت نادية لطفى سيدة مضيافة بالغة الرقة تحسن التعامل مع ضيوفها الذين كانوا يقدرونها حق قدرها . وأعتقد أننى استفدت كثيرا معرفيا من هذه الجلسات . وجاء علىّ وقت اعتقدت فيه أن سياسة مصر تدار فى مثل هذه الصالونات، بما فى ذلك سياستها العربية أو الخارجية أيضا».

«وكانت هذه السيدة الجميلة المحبة للثقافة قد اكتسبت خبرات عديدة رغم صغر سنها فى ذلك الوقت، لعل أبرزها رغبتها الصادقة فى عون أصدقائها مهما تكن الظروف».

. . . . . .

. . . . . .

وبعد فقرات يستأنف أحمد عباس صالح مديحها فيقول:

«. . . وكانت إلى جانب كل هذه الفضائل تمتاز بالجرأة وشجاعة الاقتحام ربما بسبب جمالها المستفز وما يثيره حولها من زوابع».

«وكانت بالطبع مثل سائر جيلها من فتيات الطبقة الوسطى المصرية مهتمة جدا بما يدور فى الحقل السياسى فى بلادها وكانت تعتبر أن عملها كممثلة له دور أساسى فى تحقيق المشروع القومى».

(٦٢)

ويتحدث أحمد عباس صالح حديثا طريفا عن اثنين من كبار الأطباء المصريين فى لندن، وتأتى طرافة هذا الحديث من أن صاحبه كان مريضا يتعامل مع كبار الأطباء، ومن أنه هو نفسه أصبح أبا لأطباء متميزين يعملون فى الخارج أيضا، ونبدأ بحديثه عن الدكتور مجدى يعقوب:

«. . . قابلنى الطبيب مجدى يعقوب، الذى كان الأوسع شهرة بين جراحى القلب فى بريطانيا، وقد اضطررنا أن ننتظره حتى يعود من مؤتمر طبى فى الولايات المتحدة . وأذكر أننى أعطيت موعدا فى الثامنة مساء ولكننى ظللت جالسا فى قاعة الانتظار حوالى خمس ساعات، إلى أن جاء الطبيب وأدخلت عليه».

«كان مصريا ظريفا وفيه شيء من المبالغة فى الثقة بالنفس، تأتيه من نجاحه غير المسبوق كجراح عالمى، وكان قليل الكلام، وهو نفسه يحكى أنه ظل فى طفولته لا يتكلم حتى بلغ الثالثة أو الرابعة من عمره . كشف علىّ بالسماعة فيما لا يزيد عن نصف دقيقة ثم راح يملى تقريرا سريعا لسكرتيرته الإنجليزية بتحويلى إلى القسطرة وبعض الفحوص الأخرى . وربما تحدث إلىّ ببعض جمل قصيرة».

«كانت قاعة الانتظار مليئة بالمرضى المنتظرين، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، عندما غادرت مقر عيادته فى شارع مواز لـ «هارلى ستريت»، شارع الأطباء فى لندن . وكانت هذه المواعيد «المضروبة» موضوع تندر من الأطباء الإنجليز الذين كانوا يحسدونه بغير شك بسبب تفوقه غير المنكور، والذى انتهى بأن عين بعد ذلك رئيسا لمنظمة أو جمعية رسمية لأطباء القلب فى كل بريطانيا، ومنح لقب «سير» الفخيم فى هذه البلاد».

«فى الزيارة الثانية، وكنت قد أجريت الفحوص المطلوبة، قال لى فى اقتضاب أن الشريان الرئيسى مسدود بنسبة ٨٠٪ وأنه سيغيره بشريان يقتطع من شريان ساقى وأنه يبشرنى بخبر مفرح وهو أنه سيجرى لى العملية وأظن أنه قال بابتسامة شحيحة : مبروك . سأجرى لك العملية».

«ولعلى لم أفهم حينذاك أنه يقصد تبشيرى بأن حالتى تسمح بإجراء الجراحة لأن ذلك يتعلق بحالة عضلة القلب . فقد أخذت له بعد ذلك بعدة سنوات صديقا لى عانى من أزمة قلبية فلما كشف عليه قال أن عضلة القلب ضعيفة والجراحة قد لا تفيده كثيرا وامتنع عن إجراء العملية».

(٦٣)

كذلك فإن حديث أحمد عباس صالح عن الدكتور فايز بطرس يحفل بالتقدير، وإن لم يخل من انتقاد إهماله لضبط الوقت فى مواعيده، ويصل نقد صاحب المذكرات له بسبب هذه الجزئية إلى أن يصفه بأنه «هليهلى»:

«كان هناك طبيب مصرى آخر هو الدكتور «فايز بطرس» مهمته متابعة المرضى بعد إجراء العملية طوال فترة النقاهة . وكان رجلا بالغ التهذيب ومصريًا حتى النخاع على

الرغم من أنه يعيش حياته كلها ومنذ وقت طويل فى بريطانيا وقد تزوج من امرأة إنجليزية . وكان مثل صديقه مجدى يعقوب رجلا "هليهليا" لا تشكل المواعيد عنده مشكلة كبرى وعندما أرسلت له صديقا لى مصريا كان يعمل فى الإذاعة البريطانية ليعالجه من مرض ألمّ به، تأخر عليه لأكثر من ساعة، مما اغضب صديقى وعاتبه عتابا شديدا وخرج ولم يقبل أن يعالج عنده».

«كان صديقى هذا يحسب على الأدب، إذ كان قد درس فى كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الإنجليزية ثم جاء إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه فى المسرح الإنجليزى فى فترة من فترات تاريخه الطويل . كان بالطبع معجبا جدا بالحياة الإنجليزية وعاش حياته فى إنجلترا دون أن يرجع إلى مصر قابلا أن يعمل بالترجمة فى الإذاعة دون أن يفكر فى أن يكون أستاذا للأدب الإنجليزى فى إحدى الجامعات المصرية، وهو شىء كان شبه مضمون بسبب دراساته المتخصصة؟».

(٦٤)

وفى هذه المذكرات فقرة مشعة بالدفء يتحدث فيها أحمد عباس صالح عن الأيام الأخيرة فى حياة زميله الأستاذ موسى صبرى فيقول:

«. . . وفى واشنطن علمت أن زميلى وصديقى موسى صبرى الذى كان مقربا إلى الرئيس السادات وكان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم ورئيسا للتحرير، يعالج من السرطان فى مستشفى بواشنطن فذهبت لزيارته . كان شخصا آخر غير الذى أعرفه، ولكننى استطعت أن أستخرج من هذا الجسم البالغ النحول والمبتعد سريعا عن الحياة، الرجل الذى أعرفه . كان يمسك كتابا يقرأه لعله كان قصة ليحيى حقى . كان ممسكا بالكتاب بذراع بالغ النحول حتى أن ساعة يده المعلقة فى هذا الذراع كانت تنزلق حتى تبلغ كوعه . تحادثنا طويلا عن حياتنا هذه الغريبة وعن ذكرياتنا الصاخبة . كانت آراؤنا مختلفة وربما كانت متناقضة ولكننا لأمر ما كانت تربطنا مودة ما، لعلها بسبب البيئة التى أتينا منها والثقافة نفسها، فقد تخرج أيضا فى كلية الحقوق من نفس الجامعة التى تخرجت فيها وشارك فى الحياة السياسية منذ باكورة شبابه، ولم يكن على أية حال رجلا متعصبا، وكان فى الحقيقة مهنيا ناجحا وأكثر اهتماما بالمهنة من التعصب لتيار

سياسى ما . وكان حبه للسادات صادقا وقويا، وعندما توفاه الله لم يترك شيئا من المال لأولاده. كان نقيا فى هذه الناحية . وأذكر أننا كنا نسير فى شوارع القاهرة فى أيام شبابنا نحلم بالمستقبل فقال لى : ياسلام لو أصبح مرتب الواحد مائة جنيه فى الشهر!».

(٦٥)

ويكاد أحمد عباس صالح ينفرد بالحديث الصريح عن النهاية الدرامية لحياة الشاعر الفنان إسماعيل الحبروك، وعن السبب المباشر فى هذه النهاية من وجهة نظره هو، وهو يقول:

«. . . ولم أكن ألتقى بصلاح سالم إلا فى اجتماعات موسعة . وكان قد ضم عددا من الصحفيين، وعين بعضهم رؤساء للتحرير، فقد كان للجمهورية عدد من رؤساء التحرير منهم إسماعيل الحبروك، الذى كان شاعرا غنائيا وكاتبا لقصص رومانسية، وكانت تربطه بصلاح سالم علاقة ما . وكان إسماعيل شابا مرحا بسيطا فيه كل سمات شاعر الأغانى من رقة وسماحة . ودون أن نعرف السبب وجدنا اسم إسماعيل الحبروك قد اختفى من قائمة رؤساء التحرير».

«كان إسماعيل صديقا لى من أيام روز اليوسف، وعندما رفع اسمه من الجريدة، رأيت أن علىّ أن أذهب إليه وأن أجعله يتقبل هذا الوضع بصدر رحب، وكان مكتبه إلى جوار مكتبى . عندما دخلت عليه كان متوترا جدا . حدثته بالطبع عن أنه كاتب، والكاتب أكبر من أى منصب، وأنه شاعر مرموق وكاتب جيد، ولعل هذه فرصة ليتفرغ لإصدار الكتب . وبدا أنه يصغى لى وهو سارح، وفجأة انتصب واقفا وخلع قميصه وقال : أنظر هل هناك شىء فى ظهرى ؟ كان ظهره ممتلئا ببقع حمراء، ونصحته بأن يخرج من هنا ويذهب إلى الطبيب . وعندما عدت إلى بيتى رحت أتأمل تلك الظروف التى نعيشها فهذا هو إسماعيل الحبروك الذى كنت أظنه فى وضع آمن . إذ لم تكن له اهتمامات سياسية إلا فى حدود فكرة الوطنية بما يجعله بعيدا عن الخصومات السياسية أو التدخل فى المجالات الصعبة . ولكن هاهو ذا تطوله اليد العصبية التى تتلاعب بالكتاب وبكل شىء فى حياتنا الاجتماعية الجديدة».

«كنت فى المساء أذهب إلى مقهى إنديانا، التى انتقلت مجموعة الأدباء وأساتذة جامعة القاهرة، التى ترتاد مقهى عبد الله بالجيزة إليها . وكان يوسف إدريس قد تزوج أخت زوجة إسماعيل الحبروك، وإذا بشخص يأتى للمقهى ليسر فى أذن يوسف بشىء ما فنهض مضطربا ولما سألته عما حدث قال لى إن إسماعيل الحبروك نقل إلى المستشفى مصابا بنزيف فى الدماغ . ذهبت معه إلى المستشفى ولكن الإصابة كانت خطيرة ولم يستغرق الأمر إلا ثلاثة أيام حتى فارق الحبروك الحياة».

(٦٦)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن الحوار الذى دار بينه وبين صلاح سالم حول مسئولية هذا الأخير عن نهاية حياة إسماعيل الحبروك على هذا النحو المؤسف فيقول:

«. . . لم تتحسن علاقتى بصلاح سالم وكان هو يعانى من مشاكل فى الكلى . وكنا إذا التقينا داخل الجريدة لسبب أو لآخر، نتبادل تحية مقتضبة بل لعلها باردة من ناحيته. وفى اليوم التالى لوفاة إسماعيل الحبروك اجتمعنا فى حجرة أحد رؤساء التحرير لعله كان موسى صبرى، وكان الغرض من الاجتماع هو التشاور فى إجراءات الجنازة التى تقرر أن تحدث أولا فى القاهرة، ثم فى دمنهور بلده، حيث سيدفن هناك . جلست صامتا حتى قال صلاح سالم: «الحمد الله لقد مات راضيا عنى . لقد صالحته»».

«لست أدرى ما الذى دفعنى لأنفى هذا الزعم، إذ قلت على الفور ودون أن أحسب حسابا لتأثير ذلك النفى، ورويت لقائى بالحبروك فى مكتبه وحديثى معه، والبقع الحمراء التى أرانيها على ظهره فى نفس اليوم الذى أصيب فيه بنزيف الدماغ».

«خرج منى هذا النفى القاطع دون تحسب، واكتشفت ذلك حتى وأنا أكمل حديثى، وأصررت على المضى فيه».

«صمت الجميع لعدة ثوان وإذا بصلاح سالم يشحب وجهه ثم يتجه إلى فيما يشبه الاستجداء: «إذن قل لى ماذا ينبغى أن نفعل ؟» ثم استطرد: «سوف أضع اسمه على الجريدة فى قائمة رؤساء التحرير». ولكنى كنت أهتم بشئون المعيشة أكثر من أى شىء آخر، ربما بسبب ظروفى ومسئولياتى المادية إذ قلت: لا بأس لكن الأهم من ذلك هو

أن تقرر له معاشا استثنائيا يمكن زوجته وأولاده من المعيشة الكريمة . ولعلى شرحت أننا - نحن الكتاب - لا نكاد نملك شيئا إلا مرتباتنا وعائداتنا البسيطة من الكتابة فى هذا المجال أو ذاك» .

«التفت صلاح سالم إلى مدير مكتبه وراح يملى عليه القرارات وأنا أقترح عليه اقتراحات أخرى متعلقة بتكريم إسماعيل الحبروك» .

«تحولت علاقتى بصلاح سالم بعد هذه الحادثة تحولا انقلابيا تماما ، فأصبح فى الكثير من أمور الجريدة يستدعينى ليأخذ رأيى أو حتى ليدردش معى . ولكن حالته الصحية راحت تسوء إلى أن توفاه الله»

(٦٧)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن الدكتور محمد البهى حديثا مهما ، وإن لم يكن متشبعا بالحب فيقول :

«ومثل أى أصحاب رسالة أو أيديولوجية ، كان فريق الشيخ عبد المجيد سليم يحارب من أجل هيمنة فكرته على المجتمع المصرى والمجتمعات الإسلامية . وربما كان البهى أكثرهم تحمسا أو قل تعصبا ، وكانت فكرته الأساسية أن على الإسلام أن يدحر الفكر الاشتراكى ، ليس من باب الفلسفة فقط والجانب الإلحادى فى الفكر الماركسى ، بل فى كل شىء بما فى ذلك نظم الملكية والنظام الاشتراكى بصفة خاصة . وكثيرا ما كنت أعتقد أن تحمسه للنظام الرأسمالى كان يجعله ذا حساسية خاصة تصل إلى درجة الاشمئزاز من فكرة العدالة الاجتماعية . والغريب أننى لم أصطدم معه كما أنه من جانبه كان يعاملنى بشكل جيد» .

(٦٨)

ويتحدث أحمد عباس صالح أيضا عن الأستاذ إسماعيل مظهر بما هو غير مشهور عنه :

«وكان إسماعيل مظهر شيخا وسيما مرحا وعصريا إلى أقصى درجة وكان يعرف أنه يدربنا على أن ننفتح على الحياة العصرية فيصحبنا إلى المحال ذات الطابع الأوروبى ،

كما يستقبل بناته الشابات حين يمررن عليه ويعرفنا بهن، وكنّ على جمال رائع وكياسة وقوة شخصية، وكانت تربيتهن أوروبية بشكل كامل».

(٦٩)

بقى أن أشير فى نهاية مدارستى لهذه المذكرات إلى حقيقة أنها لن تحظى بكثير من عناية النقاد والمؤرخين، ذلك أن صاحبها كتبها على هذا النحو الذى يكون به سبحات غير متجانسة من دون أن يخضعها لتجربة واحدة، أو لمسار واحد، وربما أنه هو نفسه عبر عن هذا المعنى فى مقام آخر حين ذكر بكل وضوح أنه لم يكن واعيا بأهمية التاريخ والمذكرات الشخصية فى ظل اهتمامه بالأدب، وهو ما حدث على سبيل المثال حين فرّط فى جمع مذكرات رشيد عالى الكيلانى فى كتاب، بعدما كان قد تولى كتابتها فى مجلة «صباح الخير»:

«. . . استمر عملى فى صباح الخير، ولعلى كتبت مذكرات رشيد عالى الكيلانى، الزعيم العراقى الذى قام بانقلاب عسكرى ضد الاحتلال الإنجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية، واتهم بأنه كان متفقا مع الحزب النازى. كان الرجل قد لجأ إلى مصر وأُعطى سكنا فى مصر الجديدة. كنت أذهب إليه وأستمع له، ثم أكتب هذه المذكرات التى كانت أول كتابة لمذكرات هذا الرجل، لكننى لم أجمعها فى كتاب على أهميتها، وربما كان هذا بسبب اهتمامى فقط بما هو أدب».

. . . . . .

. . . . . .

والواقع أن الرجل قد قدم لنا معروفا كبيرا بنشره لهذه المذكرات على هذا النحو الذى نشرها به، وقد أدركها قبل أن تدركه الوفاة بقليل، وربما أنه لو تباطأ فى تقديم ما قدم ما كان لنا حظ فى أن نقرأ هذا الذى قدمه.

وقد عنيت الهيئة المصرية العامة للكتاب بنشر المذكرات على نحو جميل أتاح لها حجما مقبولا وانتشارا واسعا.